

شَرْحُ ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ وَأَدْلِيَّتِهَا وَالْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

رحمته الله

شرحه

أبو عبد الله طارق بن يوسف بن عباس الوليدي



شَحْجُ ثَلَاثَةِ أَصُولٍ وَأَدْلُمَا

وَالْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ

شرح ثلاث الأصول وأدلتها

والقواعد الأربع

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي

رحمته الله تعالى

شرحه

أبو عبد الله طارق بن يوسف بن عباس الوليدي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

اسم الكتاب : شرح ثلاثة الأصول وأدلتها والقواعد الأربع .
اسم المؤلف : محمد بن سليمان التميمي .
اسم المحقق : طارق بن يوسف بن عباس الوليدي .
مقاس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم .
عدد الصفحات : (١٥٣ صفحة) .
رقم الطبعة : الأولى - ١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م .
رقم الإيداع : () .



جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فقد اعتنى العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بكتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب النجدي رَحِمَهُ اللَّهُ، لما فيها من الفوائد العظيمة، والقواعد المفيدة، في علم التوحيد والعقيدة، ولما امتازت به من السهولة والوضوح، وذكر القواعد والفوائد بأدلتها من الكتاب والسنة، فبارك الله له في مؤلفاته، وجعل الله فيها القبول، فعكف العلماء على شرحها والتعليق عليها ونظمها، حتى **قال العلامة ابن باز** - عن كتاب

ثلاثة الأصول-: وقد كان رَحِمَهُ اللهُ (النجدي) يلقي الطلبة والعامة هذه الأصول ليدرسوها ويحفظوها ولتستقر في قلوبهم لكونها قاعدة في العقيدة. اهـ

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بشرح بعض هذه المتون النافعة ومن ذلك: "ثلاثة الأصول وأدلتها"، و"القواعد الأربع"، وحرصت على أن يكون هذا الشرح موضحاً لعباراته ومسهلاً لمعانيه، معتنياً بمسائل التوحيد وما يتعلق بها، دون توسع فيما يشكل على الطلاب مما لا يكون له صلة بموضوع الكتاب، وقد استفدت من شروحات كثيرة لهذا الكتاب من أهمها "حاشية ابن القاسم" لأنه اعتنى بفكِّ الألفاظ، فأسأل الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين وأن يجعله الله ذخراً لي يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

✍️ وكتبه:

أبو عبد الله طارق بن يوسف الوليدي

(١٥/ ربيع ثاني/ ١٤٤٢هـ)



نبذة مختصرة عن الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي

رَحِمَهُ اللهُ

اسمه ونسبه: هو الإمام العلامة الشهير مجدد الدعوة بقية أكابر السلف، أبو علي شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي، ينتهي نسبه إلى عدنان.

مولده ونشأته: ولد في بلد العيينة بنجد سنة (١١١٥هـ)، فنشأ بها في بيئة صالحة، محبة للعلم والدين، فقرأ القرآن حتى حفظه وأتقنه قبل بلوغه العشر ثم اشتغل بطلب العلم فقرأ مبادئ العلوم والفقه الحنبلي على والده، وكان رَحِمَهُ اللهُ حاد الفهم سريع الإدراك والحفظ، وكان أبوه يتعجب من فهمه ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه.

وأكبَّ على مطالعة مؤلفات شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ومؤلفات تلميذه ابن قيم الجوزية، فازداد بهما علما وتحقيقا وعرفانا وقد كتب بخط يده رَحِمَهُ اللهُ كثيرا من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

عقيدته ومذهبه: كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على عقيدة السلف الصالح، وكان يتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

عبادته وزهده: وكان الشيخ رحمته الله على عبادة عظيمة لربه تعالى، فكان يحيي غالب الليل صلاة وقراءة وتهجداً، وكان مع هذا زاهداً ورعاً متعافياً.

تلاميذه: أخذ عنه رحمته الله العلم عدد كثير، وقد تولوا مناصب القضاء والإفتاء والتدريس وقاموا بواجب العلم ونشر دعوة الإسلام والتوحيد في زمنهم.

أولاده: أنجب الشيخ رحمته الله تعالى ستة أبناء علماء فضلاء وهم: علي وحسين وعبد الله وحسن وإبراهيم وعبد العزيز.

مؤلفاته: للشيخ رحمته الله مؤلفات كثيرة جداً سارت في الآفاق، في العقيدة والتوحيد والفقه والتفسير والحديث وأصول الفقه والسيرة وغيرها فمن مؤلفاته في العقيدة والتوحيد:

- ١- كتاب التوحيد.
 - ٢- كتاب كشف الشبهات.
 - ٣- كتاب الأصول الثلاثة وأدلتها.
 - ٤- القواعد الأربع.
 - ٥- كتاب أصول الإيمان.
 - ٦- كتاب فضل الإسلام.
 - ٧- كتاب مسائل الجاهلية.
 - ٨- كتاب مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد.
 - ٩- كتاب الكبائر.
 - ١٠- رسالة في الرد على الرافضة.
- وكتب رحمته الله رسائل كثيرة في تقرير التوحيد وتوضيحه.

وفاته: توفي رحمته الله في يوم الإثنين آخر ذي القعدة سنة (١٢٠٦هـ) وله من العمر (٩١) سنة، قضاه في تحصيل العلم ونشره والقيام بالدعوة إلى الإسلام

الصحيح والتوحيد، بعد مضي (٢٧) سنة من ولاية الإمام عبد العزيز ابن الإمام
محمد ابن سعود، وكان يوما مشهودا.



شرح ثلاث الأصول وأدلتها

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي

رحمه الله

شرحه

أبو عبد الله طارق بن يوسف بن عباس الوليدي

التعريف بثلاثة الأصول

الأصول الثلاثة هي: أسئلة القبر الثلاثة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟
فمن عرف هذه الأصول الثلاثة وعمل بمقتضاها فهو أهل لأن يوفقه الله
تعالى في جوابه في القبر كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:
٢٧].



المسائل الأربع

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أنه يجب علينا تعلُّمُ أربع مسائل:

الأولى: العِلْمُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العملُ به.

الثالثة: الدعوةُ إليه.

الرابعة: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ١-٣].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ

لَكَفَّتْهُمْ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

الشرح:

ابتدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز، وتأسياً بالنبي ﷺ في مكتباته ومراسلاته، والبداءة بها للتبرك والاستعانة على ما يهتم به، واقتصر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر.

قوله: «اعلم» فعل أمر من العلم، أي: كن متهيئاً ومتفهماً لما يلقي إليك من العلوم.

وكلمة (اعلم) يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة الذي ينبغي للمتعلم أن يصغي إلى ما يلقي إليه منها، وما قرره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام، ويعتني به أشد الاعتناء.

وقوله: «رَحِمَكَ اللَّهُ» دعاء لك بالرحمة، وكثيراً ما يجمع المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ - عندما يرشد الطالب بتقرير الأصول المهمة - بينها وبين الدعاء له، وهذا من حسن عنايته ونصحه وقصده الخير للمسلمين.

وقوله: «أنه يجب علينا» أي: يلزم كل فرد من أفراد المكلفين -ذكرًا كان أو أنثى، حرًا أو عبدًا- «تعلم أربع مسائل^(١)» وهي:

«الأولى: الْعِلْمُ» وهو معرفة الهدى بدليله. وضده الجهل.

والعلم إذا أطلق فالمراد به العلم الشرعي الذي تفيد معرفته ما يجب على المكلف من أمر دينه^(٢).

وقوله: «وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ» أي: بما تعرف به إلينا في كتابه وسنة رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله، ولا يكون الإنسان على حقيقة من دينه إلا بعد العلم بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: «وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ» فهو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله، ومعرفته فرض على كل مكلف، وأحد مهمات الدين.

وقوله: «ومعرفة دين الإسلام» أي: معرفة دين الإسلام الذي تعبد الله الخلق به.

(١) جمع مسألة، من السؤال: وهو ما يبرهن عنه في العلم.

(٢) والعلم الشرعي على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية. وما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ فهو فرض عين على الذكر والأنثى، والحر والعبد، لا يعذر أحد بالجهل به، وفي الحديث عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وهو حديث حسن بجموع طرقه، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه. قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله: صلاته وصيامه ونحو ذلك. اه وإن أهم ما على العبد معرفة دينه، الذي معرفته والعمل به سبب لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، أعاذنا الله منها. "حاشية ابن القاسم" ص ١٥.

وقوله: «بالأدلة» أي: من الكتاب والسنة. والأدلة: جمع دليل، والدليل: هو ما يوصل إلى المطلوب.

وفيه: إشارة إلى ذمّ التقليد، وأن جهل الإنسان حقيقة ما أمر الله به من أعظم الإثم.

وقوله: «الثانية: العمل به» أي: العمل بالعلم، فالعمل: هو ثمرة العلم، والعلم مقصود لغيره، فهو بمنزلة الشجرة والعمل بمنزلة الثمرة، فلا بد مع العلم بدين الإسلام العمل به، فإن الذي معه علم ولا يعمل به شر من الجاهل، والعمل بغير علم طريق النصارى، والعلم بلا عمل طريق اليهود، ولهذا **قال سفيان بن عيينة وغيره من السلف: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى** ^(١).

وقوله: «الثالثة: الدعوة إليه» أي: إذا حصل له بتوفيق الله العلم بدين الإسلام والعمل به فيجب عليه السعي في الدعوة إليه، كما هي طريقة الرسل وأتباعهم، فإنه ما من نبي يبعث إلى قومه إلا ويدعوهم إلى طاعة الله وإفراده بالعبادة، وينهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه، ويبدأ بالأهم فالأهم بعد ذلك من شرائع الإسلام ^(٢).

(١) انظر: "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/ ٧٩).

(٢) ومن أهم شروط الدعوة إلى الله: (١) أن تكون الدعوة خالصة لوجه الله تعالى. (٢) أن تكون الدعوة مبنية على العلم الشرعي. (٣) أن تكون الدعوة بالحكمة والصبر. (٤) أن تتم مراعاة أحوال المدعوين. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ

وقوله: «الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ» أي: لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه فقد تحمل أمراً عظيماً، وقام مقام الرسل في الدعوة، وقصد أن يحول بين الناس وبين شهواتهم وأهوائهم واعتقاداتهم الباطلة، فحينئذ لا بد أن يؤذوه، فعليه أن يصبر ويحتسب، وهذه الأربع أوجب الواجبات.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ» أي: الدليل على هذه المسائل الأربع ^(١) **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾** أقسم تعالى بالعصر، وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح، وهو **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ أي: جنس الإنسان في خسارة، إلا من استثنى الله في هذه السورة، وهو من قام بهذه الخصال: **﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** أي: صدقوا وأقروا بقلوبهم، بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به. وهذا دليل المسألة الأولى.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة، وهذا دليل المسألة الثانية.

أَتَّبَعْنِي وَتَبِعُوا اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [يوسف: ١٠٨]. وقوله: **﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥].

(١) والمؤلف **رَحِمَهُ اللَّهُ** كثيراً ما يذكر المسألة مقرونة بالدليل: ١- ليربي الطالب على الاتباع لا على التقليد. ٢- وليكون عند الطالب حجة يرد بها على المخالف. ٣- وليكون للطالب القدرة على استنباط الأحكام من أدلتها على أسس سليمة.

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالإيمان بالله وتوحيده، وبالكتاب والسنة والعمل بما فيهما، ومنه الدعوة إليه، وهذا دليل المسألة الثالثة.

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، وفيه الصبر على الأذى فيه، فإن من قام بالدعوة إلى الله فلا بد أن يحصل له من الأذى بحسب ما قام به، وهذا دليل المسألة الرابعة.

وفي هذه السورة الكريمة التنبيه على أن جنس الإنسان كله في خسارة إلا من استثنى الله، وهو من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالطاعات، فهذا كماله في نفسه ثم كمل غيره بوصيته له بذلك وأمره به، وبملاك ذلك وهو الصبر، وهذا غاية الكمال، **قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:** فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الآخرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسارة، وفاز بالربح العظيم. اهـ^(١)

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين. اهـ^(٢)

وقوله: «**قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ**» هو محمد بن إدريس القرشي، الإمام الشهير، المتوفى سنة (٢٠٤ هـ)

(١) انظر: "تفسير السعدي" ص ٩٣٤.

(٢) انظر: "زاد المعاد" (٩/٣).

وقوله: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَتْهُمْ» هكذا نقل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه العبارة عن الإمام الشافعي، ولعله نقلها بالمعنى، وقد انتقد العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى هذا النقل من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن هذه السورة غير كافية في إقامة الحجة على الناس، إذ ليس فيها ذكر الصلاة والصيام والحج وغيرها من أركان الإسلام والدين، وصواب العبارة: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم أو لكفتهم»^(١) أي: لعظم شأنها مع غاية اختصارها، ولجمعها للخير بحذافيره، فإنها دلت على العلم والعمل، والدعوة إلى الحق، والصبر على الأذى فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، فهي حقيقة بأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام الجليل، **وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:** هو كما قال، فإن الله أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً، ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر. اهـ^(٢)

وقوله: «وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى» هو محمد بن إسماعيل، جبل الحفظ، صاحب الصحيح الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله، المتوفى سنة (٢٥٦ هـ).

وقوله: «بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ» ترجم رَحِمَهُ اللَّهُ بالبداية بالعلم؛ لأن تعلم العلم الفرض مقدم على القول والعمل، وذلك أن قول المرء وعمله لا يصلح إلا إذا صدر عن علم، وهل تمكن عبادة الله - التي هي حقه على خلقه وخلقهم لها - إلا بالعلم؟!.

(١) هكذا نقل عبارة الشافعي الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ كما في "تفسير ابن كثير" سورة العصر.

(٢) انظر: "مجموع الفتاوى" (١٥٢/٢٨).

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾
 فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ» حيث قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ «قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ» وهو
 قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم.





المسائل الثلاث

قال المصنف رحمه الله:

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعْلَمُ ثَلَاثَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ وَالْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأولى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦].

الثانية: أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدٌ لَا مَلَكٌ مُّقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُّرْسَلٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

الثالثة: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مَوَالَاةٌ مِنْ حَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبًا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَلِيدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾

الشرح:

قوله: «اعْلَم - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ» أي: يلزم كل مكلف من ذكر وأنثى، حر وعبد، وجوباً عيناً، يعاقب المرء على تركه.

وقوله: «تَعْلَمُ ثَلَاثَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ» أي: معرفتها، واعتقاد معانيهن «وَالْعَمَلُ بِهِنَّ» أي: والعمل بمدلوهن، فإن العمل هو ثمرة العلم.

وقوله: «الْأُولَى» أي: المسألة الأولى وهي: تتعلق بتوحيد الربوبية وهو: إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير (بأفعاله).

وقوله: «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا» أي: أوجدنا بعد أن لم نكن شيئاً لعبادته، ورزقنا النعم لنستعين بها على ما خلقنا لأجله.

وقوله: «وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا» أي: مهملين معطلين سدى، شبه البهائم لا نؤمر ولا ننهى، قال تعالى: ﴿يُحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتعالى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿[المؤمنون: ١١٥، ١١٦]﴾، بل خلقنا لنعبده وحده لا شريك له.

وقوله: «بَلْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا» هو محمد ﷺ، أرسله بالهدى ودين الحق، وهذا أصل عظيم من أصول الدين يجب علينا معرفته، واعتقاده، والعمل بمقتضاه.

وقوله: «فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» لأن طاعته طاعة الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وجاء في البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

وقوله: «وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ» قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] وقد أمرنا الله بطاعته ونهانا عن معصيته في غير موضع من كتابه.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ١٥» فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا» أي: فهذه عاقبة العصاين للرسول، وجزاء المخالفين لأمرهم، فاحذروا أنتم أيها الأمة أن تعصوا نبيكم محمدًا ﷺ فيحل بكم، كما حل بهم من عقاب الله وأليم عذابه في الدنيا والآخرة.

وقوله: «الثانية» أي: المسألة الثانية وهي: تتعلق بتوحيد الألوهية وهو: أفراد الله تعالى بالعبادة.

وقوله: «أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدٌ» أي: أنه سبحانه المستحق لها وحده، ومن سواه لا يستحق شيئاً منها، ولهذا سمي الله المشرك ظالماً، لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وأخبر تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر، وإنما يرضى لهم الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وأعظم الشكر هو توحيد الله، وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» الحديث (١).

وقوله: «لَا مَلِكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ» أي: لا يرضى سبحانه أن يجعل له شريك في عبادته، لا ملك مقرب عنده ولا نبي مرسل، يعني: فضلاً عن غيرهما من سائر المخلوقات. فإذا لم يرضَ بعبادة من كان قريباً منه كالملائكة. ولا نبياً مرسلًا - وهم أفضل الخلق - فغيرهم بطريق الأولى، لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير فهو المستحق للعبادة وحده دون من سواه.

(١) رواه مسلم (١٧١٥).

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة^(١)، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته.

و﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي شملت جميع ما يدعى من دون الله، سواء كان المدعو من دون الله صنمًا، أو وليًا، أو شجرةً، أو قبرًا، أو جنياً، أو غير ذلك، فإن دعاء غير الله هو الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: **﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** [المائدة: ٧٢].

وقوله: «الثالثة» أي: المسألة الثالثة من المسائل وهي: في تحقيق البراءة من الشرك وأهله^(٢).

(١) دعاء العبادة وهو: مطلق التعبد لله رجاء ثوابه، وخوف عقابه، كالصلاة والصيام والحج والذكر وغيرها من العبادات الأخرى. ودعاء المسألة وهو: طلب ما ينفع الداعي في جلب منفعة أو دفع مضرة (التلفظ بالسؤال)، كقولك: اللهم اغفر لي وارحمني ونحو ذلك من المنافع الدنيوية أو الآخروية. وهما متلازمان فكل دعاء عبادة **مستلزم** لدعاء المسألة (أي: أن من عبدته فيلزم أن تدعوه)، وكل دعاء مسألة **متضمن** لدعاء العبادة (أي: أن من يسأل الله يتضمن سؤاله عبادة الله).

(٢) والبراءة من الشرك وأهله تكون: (١) بالقلب؛ وذلك بأن تبغض الكفار وتبغض أفعالهم.

(٢) وباللسان؛ وذلك بأن تكفرهم وتبترأ منهم ومن أفعالهم. (٣) وبالجوارح؛ وذلك بالبعد

عنهم وعدم مشاركتهم في عقائدهم وعباداتهم. والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ**

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيِ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

وقوله: «أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ» أي: فيما أمر به، واجتنب ما نهى عنه **«وَوَحَّدَ الله»** أي: في عبادته **«لا يجوز له موالاة»** أي: مودة، ومحبة **«من حاد»** أي: جانب وخالف وغاضب^(١) **«الله وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ»** بل يجب عليه أن يصارمهم ويقاطعهم ويعاديهم أشد المعادة.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقيم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وقوله: ﴿يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان من حاد الله ورسوله ابنك أو أباك أو أخاك أو عشيرتك، فإن الله قطع التواصل والتواد والتوارث، وغير ذلك من الأحكام والعلاقات، فإن القرب هو في الحقيقة قرب الدين لا قرب النسب، فالمسلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الله، والكافر ولو كان أخوك في النسب فهو عدوك في الدين، وحرام على كل مسلم موالاتهم، بل يجب اتخاذهم أعداء وبغضاء، ثم

= وَيَبْنِيكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا ﴿[المتحنة: ٤].

(١) المحادة لها معنيان: أحدهما: أن الكفار كانوا في حدّ والمؤمنون في حد، المؤمنون في حد الله ورسوله، وهو الإيمان، والمشركون في حد إبليس وجنوده، وهو الكفر. والثاني: أنه ليس بين الكافرين والمسلمين إلا الحديد. يعني القتال بالحديد. "حاشية ابن القاسم" ص ٣٠.

بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَعَدَّ لِمَنْ قَامَ بِهَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد قسم العلماء الموالاة للمشركين والكفار إلى قسمين:

القسم الأول: الموالاة الكبرى.

وضابطها: مودة ومحبة الكافرين لأجل دينهم وما هم عليه من العقائد الباطلة.

وحكمها: أنها موالاة مخرجة من الملة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

(١) قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: فإنه منهم في الكفر إذا كانت الموالاة لأجل الدين، وأما إذا كانت الموالاة لأجل الدنيا فيكون المعنى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: في استحقاق العذاب. "زاد المسير" (١/ ٥٥٨).

إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ ثِقَةً ﴿٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨] **قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾** أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب.

النوع الثاني: الموالاة الصغرى. وهي صغرى باعتبار الأولى، وإلا فهي في نفسها أكبر الكبائر، لكنها لا تخرج صاحبها من الملة.

وضابطها: إظهار المحبة لهم والقرب منهم وتقديم بعض الخدمات لهم، لا لأجل دينهم، وإنما من أجل مصالح دنيوية كالمال والجاه والمنصب وغير ذلك من الأمور الدنيوية، مع بغضهم وبغض ما هم عليه، وعدم مناصرتهم على المسلمين. **وحكمها:** أنها كبيرة من الكبائر لا يخرج صاحبها من الإسلام، والدليل على أن هذه الموالاة لا يخرج صاحبها من دين الإسلام قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١] فإنها نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

(١) جاء في البخاري (٦٩٣٩) ومسلم (٢٤٩٤) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ فَقَالَ: «اأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَأَنْطَلَقْنَا تَعَادَى بَنًا حَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقَيْنَ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ =



=
 امرأ مَلَصَقًا فِي قُرَيْشٍ - كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ يَمْنَنُ كَانَ مَعَكَ مِنَ
 الْمُهَاجِرِينَ هُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ
 فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ
 الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ،
 فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ
 غَفَرْتُ لَكُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾
 [الممتحنة: ١]، وانظر: "الصحيح المسند من أسباب النزول" للعلامة الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.



الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وَمَعْنَى يَعْبُدُونَ: يُوَحِّدُونَ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الشرح:

قوله: «اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ» أي: هداك الله ووفقك لما ينفعك في دنياك وآخرتك، والرشد: الاستقامة على طريق الحق، وهو ضد الغي.

وقوله: «أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ» وهي الملة المائلة عن الشرك المقبلة إلى التوحيد، فالحنيف هو: المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

وقوله: «مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ» أي: طريقة وشريعة الخليل إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» الإخلاص هو: حب الله وإرادة وجهه.

وعبادة الله بالإخلاص وترك ما سواه هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُوحِيََا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله: «وَبِذَلِكَ» أي: وبالإخلاص في جميع ما تعبدنا الله به، الذي هو ملة إبراهيم «أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا» أي: وخلق لها جميع الثقلين الجن والإنس «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» أي: ما أوجد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الثقلين إلا لحكمة عظيمة، وهذه الحكمة العظيمة هي عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

وقوله: «وَمَعْنَى يَعْبُدُونَ: يُوحِّدُونَ» هذا تفسيرٌ للعبادة لبعض أفرادها؛ لأن العباد اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه^(١).

(١) والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، من قولهم: طريق معبد، أي: مذل قد وطأته الأقدام، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات، لأنهم يفعلونها لله خاضعين ذالين. "حاشية ابن القاسم" ص ٣٦.

وقوله: «وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ» وهو أعظم فريضة فرضها الله على العباد علماً وعملاً، ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب، وتستوجب الجنة، وينجى من النار.

وقوله: «وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ» عرّف المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ التوحيد بتوحيد الألوهية (العبادة)؛ لأنه الذي حصل فيه الخلاف والنزاع بين الرسل وأقوامهم.

والتوحيد ثلاثة أقسام:

- (١) توحيد الربوبية، وهو: إفراد الله تعالى بأفعاله، كالخلق والملك والتدبير.
- (٢) توحيد الأسماء والصفات، وهو: إفراد الله تعالى بأسماءه الحسنى وصفاته العلا. وذلك بأن يوصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.
- (٣) توحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة.

وقوله: «وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ» وهو أعظم ذنب عصي الله به، وأي ذنب أعظم من أن يجعل مع الله شريك في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه أو صفاته، وكما أن الشرك أظلم الظلم وأبطل الباطل فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي؛ لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه.

وقوله: «وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ» أي: طلب غير الله مع الله، وسؤال غيره معه - من ملك، أو نبي، أو ولي، أو شجرة، أو حجر، أو قبر، أو جني - والاستعانة به، والتوجه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾» يأمر سبحانه عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً.

و﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم الشرك قليله وكثيره، وقرن سبحانه العبادة التي فرضها على عباده بالنهي عن الشرك الذي حرمه، فدلّت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة.



الأصول الثلاثة

قال المصنف رحمه الله:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟
فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّي اللَّهُ الَّذِي رَبَّنِي وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ وَهُوَ مَعْبُودِي
لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وكل ما سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ
الْعَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا
بَيْنَهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ

النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ.

الشرح:

بدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بذكر الأصول الثلاثة والمتمثلة في أسئلة القبر الثلاثة، وجعلها في صيغة سؤال وجواب لينتبه لها الطالب، ويكون هذا أدعى لحفظها وفهمها.

قوله: «فَإِذَا قِيلَ لَكَ» أي: إذا سألك سائل، فقال لك: «مَا الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَحِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟» أي: والعمل بمقتضاها؟ «فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ» أي: بما تعرف به إليه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من وحدانيته، وأسمائه، وصفاته، وهذا أصل الأصول، فيجب علينا أن نعرفه على بصيرةٍ ويقين.

وقوله: «وَدِينَهُ» أي: الذي تعبدنا به، وهو فعل ما أوجب علينا أن نفعله، وترك ما أوجب علينا أن نتركه، وهذا أصل عظيم فيجب علينا معرفته.

وقوله: «وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ» فإنه الوساطة بيننا وبين الله عز وجل، ولا طريق لنا إلى ما تعبدنا به إلا بما جاء به ﷺ.

وذكر المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة مجملة، ثم ذكرها بعد ذلك مفصلة أصلاً أصلاً، تمييزاً للفائدة، وتنشيطاً للقارئ، فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها وضبطها بقي متشوقاً إلى معرفة معانيها.

وقوله: «إِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟» هذا شروعٌ في تفصيل الأصول الثلاثة التي تقدمت مجملة ذكرها هنا مفصلة، فكأنه قال: الأصل الأول من أصول الدين الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها «إِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟» أي: من خالقك ورازقك ومعبودك الذي ليس لك معبود سواه؟^(١)

وقوله: «فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي» أي: فقل ربي هو الله خالقي ومالكي ومعبودي الذي أوجدني من العدم، ورباني بالنعمة الظاهرة والباطنة.

وقوله: «وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ» أي: أوجدتهم من العدم وغذاهم بالنعمة، فله نعمه الإيجاد، ونعمة التغذية، وسائر نعمه الظاهرة والباطنة، وإنما أوجده الله من العدم ورزقه من النعم، ليعبده وحده.

قال العلامة السعدي رحمه الله: وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

(١) فالمراد بهذا السؤال توحيد الألوهية بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيريهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ [الرب] فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة^(١).

وقوله: «وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ» أي: هو وحده مألوهي لا غيره، كما أنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فهو وحده المستحق بأن يعبد وحده دون ما سواه، وهذا مدلول كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله).

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❖ أي: الذي تفرد بجميع الخلق وربوبيتهم وملكهم، وتصرفه فيهم بما يشاء، وهو معبودهم ليس لهم معبود سواه، فإن الرب إذا أفرد دخل فيه المعبود، فهو المالك المتصرف، المعبود وحده دون كل من سواه.

وقوله: «وكل ما سوى الله عالمٌ» لأن الوجود قسمان: رب، ومربوب. فالرب: هو المالك سبحانه، المتفرد بالربوبية والإلهية، والمربوب: هو العالم، وهو كل من سوى الله من جميع الخلائق.

(١) ودليل هذه التربية قوله تعالى: ❖ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. انظر: "تفسير السعدي" سورة الفاتحة.

وقوله: «وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ» أي: وأنا أيها الإنسان واحد من جملة تلك المخلوقات المربوبة المتعبدة بأن يكون الله وحده هو معبودها وحده.

وقوله: «فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟» أي: بما استدلت على معرفتك ربك ومعبودك وخالقك؟ **«فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ»** أي: فقل: عرفته بآياته ومخلوقاته التي نصبها دلالة على وحدانيته وتفرد بالربوبية والإلهية، والآيات: جمع آية، والآية: العلامة والدلالة والبرهان والحجة. والمخلوقات: جمع مخلوق وهو ما أوجد بعد العدم^(١).

وكل شيء من آياته ومخلوقاته دال على وحدانيته وتفرد بالربوبية، كما قال الشاعر:

فوا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
فإيجاد هذه المخلوقات أوضح دليل على وجود الباري تعالى وتفرد بالربوبية والإلهية.

وقوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ» أي: ومن أعظم آياته المشاهدة بالآبصار **«اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»** أي: كون الليل يأتي على النهار فيغطيه وكأنه لم يكن، ثم يأتي النهار ويذهب بظلمة

(١) كل مخلوق هو آية على وجود الله سبحانه وتعالى، ولكن غير المصنف بين الآية والمخلوق؛ لأن الآية تتغير، مثل الليل والنهار، والذي يتغير يكون فيه قوة دليل عن الذي لا يتغير.

الليل حتى كأن الليل لم يكن، فمجيء هذا وذهاب هذا بهذه الصفة وهذه الصورة المشاهدة دال أعظم دلالة على وحدانية خالقه وموجده.

وقوله: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» أي: ومن أعظم آياته المشاهدة بالآبصار: [الشمس والقمر]، وكونها يجريان هذا الجريان المتقن ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] دال أعظم دلالة على وحدانية موجدتهما تعالى وتقدس.

وقوله: «وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا» أي: ومن أعظم مخلوقات الله الدالة على وحدانيته تعالى السماوات السبع وسعتها وارتفاعها، والأرضون السبع وامتدادها وسعة أرجائها، وما في السماوات السبع من الكواكب الزاهرة، والآيات الباهرة، وما في الأرضين السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات وسائر الموجودات، وما بين السماوات والأرض من الأهوية والسحاب، وغير ذلك دال على وحدانية البارئ **جَلَّ جَلَالُهُ**، وعلى تفرده بالخلق والتدبير.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أمر تعالى عباده أن يفرّدوه بالعبادة وحده، فكما أنه المتفرد بخلق الليل والنهار والشمس والقمر، وسائر المخلوقات، فهو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ومن أعظم الدلائل والمعرفات التي تعرف بها سبحانه على عباده خلق السماوات والأرض، فهو المتفرد بالخلق، كما أنه المتفرد بالأمر، فلا شريك له في الخلق، كما أنه لا شريك له في الأمر، له الخلق كله، وله الأمر كله، وييده الخير كله، وهو على كل شيء قدير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله: «وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ» أي: ومن معاني الرب، وما يطلق عليه: المعبود، كما أنه يطلق على الخالق والرزاق والمالك والمتصرف ومربي جميع الخلق بالنعمة، وإذا قرن بالمعبود شمل معاني عديدة، ومعنى المعبود: المألوه المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾» هذا خطاب لجميع الخلق، وهو أول أمر يمر بك في المصحف الكريم بحسب الترتيب الموجود فيه، يعني: اعبدوه وحده دون كل من سواه، وهذا يفيدك: عظم شأن التوحيد، وأنه أوجب الواجبات، وأنه أول فرض على المكلف علماً وعملاً، وهو مدلول شهادة (أن لا إله إلا الله)، التي من أوجب الواجبات العلم بمعناها، والعمل بما دلت عليه، من أفراد الله بالعبادة والبراءة من الشرك وأهله.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿ أَي: ومن كان هذا وصفه فهو المستحق أن تعبدوه وحده ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أَي: أمثالا ونظراء بصرف شيء من أنواع العبادة لهم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: أنها لا تماثله بوجه من الوجوه، فيحتج تعالى عليهم بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية، فإنه تعالى كثيرا ما يقرر في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الألوهية.

وقوله: «قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ» هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي الحافظ، المتوفى سنة (٧٧٤ هـ).

وقوله: «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة»^(١) يعني: أن الآيات دلت على أن الذي خلق هذه الأشياء وأوجدها من العدم على غير مثال سبق هو المستحق للعبادة وحده دون من لم يكن له شركة فيها ولا في غيرها وإن قل، بل من سواه تعالى وتقدس مخلوق مربوب متصرف فيه، فيكون بذلك أوضح برهان أنه سبحانه هو المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه، لا إله غيره ولا رب سواه.

(١) انظر: "تفسير ابن كثير" سورة البقرة رقم الآية (٢٢).

أنواع العبادة

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا مِثْلُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ، وَمِنْهُ الدُّعَاءُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالتَّوَكُّلُ وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالْاسْتِعَانَةُ، وَالْاسْتِعَاذَةُ، وَالْاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا كُلُّهَا لِلَّهِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الشرح:

قوله: «وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا» أي: وأصناف العبادة التي شرع الله لعباده القيام بها، وتعبد بهم بها «مِثْلُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ» هذه الثلاثة أعلى مراتب الدين وأهم أنواع العبادة، فلذلك بدأ بها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم ذكر جملة من أنواع العبادة فقال: «وَمِنْهُ الدُّعَاءُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالتَّوَكُّلُ وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالْاسْتِعَانَةُ، وَالْاسْتِعَاذَةُ، وَالْاسْتِغَاثَةُ،

والذَّبْحُ، والنذرُ، وغيرُ ذلك من العِبَادَةِ أي: أن أنواع العبادة ليست مخصوصة بهذه الأنواع ولا محصورة في هذه الأنواع التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، بل هي أنواع كثيرة جدًا.

وقوله: «الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا» إشارة إلى بعض حدود العبادة عند بعض العلماء: أنها ما أمر به شرعاً^(١)، وللعلماء فيها تعاريف كثيرة، وأحسن وأجمع ما عرفت به هو ما عرفها به شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بقوله: [اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة]. وهو من أشمل ما عرفت به، فكل فرد من أفراد العبادة داخل تحت هذه العبارة.

وقوله: «كُلُّهَا اللهُ» أي: جميع أنواع العبادة مما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ وغيره لله وحده، لا يصلح منها شيء لغير الله عَزَّوَجَلَّ، لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، ولا أضل ولا أظلم ممن يجعل لمخلوق مربوب منها شيئاً.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وهذه كلمة شاملة عامة، فـ **﴿أَحَدًا﴾** نكرة في سياق النهي، شملت الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم، فلا يدعى مع الله أحد من الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، فقد شملت جميع الخلق.

(١) تعرف العبادة أنها عبادة بأمور منها: (١) ما أمر الله به شرعاً (بأن يأمر تعالى بصرفها له، أو ينهى تعالى عن صرفها لغيره). (٢) ثناء الله تعالى على من فعلها، أو ذم من تركها. (٣) ترتيب الثواب على من فعلها، أو الوعيد على من تركها.

وقوله: «فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ» أي: فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة التي ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مثل: من دعا غير الله من الأموات والغائبين، أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، أو غير ذلك فهو مشرك بالله الشرك الأكبر، المخرج من الملة.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾» أي: ومن أشرك بالله لا حجة له ولا بينة، لأنه لا حجة لأحد في دعوى الشرك^(١)، ثم أخبر أنه لا يفلح الكافرون، فسماهم كافرين لدعائهم مع الله غيره، ولا ينازع مسلم في كفر من دعا مع الله غيره.

وفي الآية أوضح برهان على كفر من دعا مع الله غيره، سواء كان المدعو ملكاً أو نبياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً.

(١) فقوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] صفة أخرى لإلها لازمة له، جيء بها للتأكيد.
”حاشية ابن القاسم“ ص ٥٦.

قال المصنف رحمه الله:

وفى الحديث: «الدُّعَاءُ مَعَ الْعِبَادَةِ»، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَدَلِيلُ الرِّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] الآية. وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤] الآية.

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ».

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]،
 وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].
 وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ
 لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] الآية.
 وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].
 وَمِنْ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ».
 وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾
 [الإنسان: ٧].

الشرح:

هذا شروع في ذكر أدلة أنواع العبادة التي عدّها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة، فأما
 الإسلام والإيمان والإحسان فسيأتي مفصلاً في الأصل الثاني.

أولاً: عبادة الدعاء.

بدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بالدعاء؛ لأنه أهم العبادات، فقال: «وَفِي الْحَدِيثِ» يعني:
 عن النبي ﷺ: «الدَّعَاءُ مَخِ الْعِبَادَةِ»^(١) ومخ الشيء خالصة^(١).

(١) ضعيف:

أخرجه الترمذي (٣٣٧١) فقال: حدثنا علي بن حجر قال: أخبرنا الوليد بن مسلم، عن ابن
 لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن أبان بن صالح، عن أنس بن مالك به. وهذا إسناد =

وقد قسم العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ الدعاء إلى قسمين:

(١) **دعاء عبادة**. وهو: دعاء بلسان الحال كالصلاة والصيام والحج. ولا يجوز صرفه لغير الله، ومن صرف منه شيئاً لغير الله فقد أشرك الشريك الأكبر.

(٢) **دعاء مسألة**. وهو: دعاء بلسان المقال كقول: اللهم اغفر لي وارحمني.

وحكم صرفه لغير الله فيه تفصيل:

أ- إذا كان السؤال للمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر.
ب- وإذا كان السؤال للمخلوق فيما يقدر عليه فيجوز بشروط أربعة وهي:

- (١) أن يكون المدعو حياً، فخرج بهذا الشرط: الميت.
- (٢) أن يكون المدعو حاضراً، فخرج بهذا الشرط: الغائب.
- (٣) أن يكون المدعو قادراً، فخرج بهذا الشرط: العاجز.

ضعيف؛ فيه علتان:

(١) عننة الوليد بن مسلم وهو مدلس. (٢) ضعف ابن لهيعة. والثابت هو حديث النعمان بن بشير رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. أخرجه أحمد (١٨٣٥٢) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) عن زر، عن يسيع الكندي، عن النعمان بن بشير به. وهذا إسناد صحيح وهو في "الصحيح المسند" للعلامة الوادعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ برقم (١١٥٩).

(١) وأتى ﷺ فيه بضمير الفصل والخبر المعرف بالألف واللام، ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء، وإنما هي الدعاء نفسه.

٤) أن يعتقد أن المدعو مجرد سبب غير مؤثر بذاته.

فإن اعتقد أن لهذا المدعو تصرفاً خفياً في الكون وييده جلب المنافع ودفع المضار، فهذا شرك.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» أمر تعالى عباده أن يدعوه، ووعدهم أن يستجيب لهم، فدل على أن الدعاء عبادة، بل هو أجل العبادات وأساسها، ودل على أنه سبحانه يحب من عباده أن يدعوه، وأن الدعاء مما يحبه الله، وسمى الله الدعاء عبادة، فدل على أن صرفه لغير الله شرك أكبر.

ثانياً: عبادة الخوف

وقوله: «وَدَلِيلُ الْخَوْفِ» وأنه عبادة من العبادات القلبية، بل هو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله الذي أمر الله به عباده إلا به. والخوف هو: انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوف عبادة وتعظيم. وهو خوف العابد من معبوده، ويتضمن الذل والخضوع والتعظيم للمعبود، وهذا النوع واجب لله، وصرفه لغير الله شرك أكبر.

النوع الثاني: خوف طبيعي (جبلي). كأن يخاف الإنسان من النار والعدو والحيوان المفترس، وهذا النوع مباح.

النوع الثالث: خوف محرم. كالقنوط من رحمة الله، أو طاعة المخلوق في معصية الخالق خوفا منه.

وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا نهى من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يخافوا أولياء الشيطان الذين خوفكم إياهم، ثم أمر بالخوف منه وحده، وجعله شرطاً في صحة الإيمان، وهذا يدل على أنه من أعظم العبادات.

ثالثاً: عبادة الرجاء

وقوله: «ودليل الرجاء» وهو طمع الإنسان في أمر قريب المنال غالباً^(١). والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله تعالى، وصرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

والرجاء المحمود لا يكون إلا لمن عمل بطاعة الله ورجا ثوابها، أو تاب من معصية الله ورجا قبول توبته، وأما الرجاء بلا عمل فهو غرور وتمنٍّ مذموم.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا يجعل مع الله شريكاً في عبادته، فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده لا شريك له، فـ ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي تعم كل مدعو من دون الله من الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم، فإنه إذا رجا غير الله فهو مشرك الشرك الأكبر.

(١) فقد يكون في بعيد المنال، تنزيلاً له منزلة القريب.

رابعاً: عبادة التوكل

وقوله: «وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ» وهو صدق التفويض والاعتماد على الله مع الثقة به والأخذ بالأسباب المشروعة.

وهو من أجل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد فلا يفوض العبد أموره ولا يعتمد إلا على الله **عَزَّوَجَلَّ**، فهو القادر على كل شيء، بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وإذا كان كذلك فالمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يعتمد عليه، ولو كان في ما أقدره الله عليه، بل يعتمد العبد على الله **عَزَّوَجَلَّ** وحده، فالتوكل عبادة قلبية، فإن اعتمد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فذلك هو الشرك الأكبر، وإن اعتمد على الأحياء الحاضرين والسلاطين ونحوهم في ما أقدرهم الله عليه، من رزق أو دفع أذى ونحوه فهو نوع شرك أصغر.

والمباح أن يوكل شخصاً بالنيابة في التصرف في أمور دنياه، لكن لا يقول: توكلت عليه، بل وكّلته، فإنه ولو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله **عَزَّوَجَلَّ** وحده.

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإخلاص التوكل على الله شرط في صحة الإيمان، ينتفي عند انتفائه، فإن تقديم المعمول وهو قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ على العامل وهو كلمة (توكلوا) يفيد الحصر، أي: عليه وحده فتوكلوا لا على غيره إن كنتم مؤمنين.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١) الحسب معناه: الكافي، وهذه الآية دليل ثان ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على أن التوكل عبادة من أجل أنواع العبادة، ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفايته العبد، فقال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ولم يأتي في غيره من العبادات مثل هذا الجزاء، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته، وأنه أجل أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر.

خامساً: عبادة الرغبة والرغبة والخشوع

وقوله: «وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ» وأتمها عبادات قلبية، من أجل العبادات، وصرفها لغير الله شرك أكبر.

والرغبة: محبة الوصول إلى الشيء المحبوب.

والرهبة: الخوف المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بالعمل.

والخشوع: الذل والخضوع لعظمة الله بحيث يستسلم لقضائه الكوني والشرعي^(١).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾^(٢) فدللت الآية على أن هذه الثلاثة الأنواع من أجل أنواع العبادة، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر.

(١) وهو قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبصر والصوت.

”حاشية ابن القاسم“ ص ٦٢.

سادساً: عبادة الخشية.

وقوله: «وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ» وهي: الخوف المبني على العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه. وهي من أجل أنواع العبادة وصرفها لغير الله شرك أكبر.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أمر **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بخصيته وحده، ونهى عن خشية غيره، كما في الآية الثانية **﴿فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَاخْشَوْنِي﴾** [المائدة: ٤٤] فدللت الآيتان وما في معناهما على أن الخشية عبادة من أجل العبادات، فصرفها لغير الله شرك أكبر.

سابعاً: عبادة الإنابة.

وقوله: «وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ» وهي: الرجوع إلى الله تعالى بالقيام بطاعته واجتناب معصيته^(١).

وقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: أقبلوا إلى ربكم وارجعوا إليه بالطاعة، وأخلصوا له التوحيد، وأمره تعالى عباده بالإنابة ظاهر في أنها عبادة، وأنه يجبها شرعاً ودينياً، فصرفها لغير الله شرك أكبر.

(١) وهي من أجل أنواع العبادات، وهي أعلى من مقام التوبة، فإن التوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم أن لا يعود إليه، والإنابة تدل على ذلك، وتدل على الإقبال على الله بالعبادات. "حاشية ابن القاسم" ص ٦٤.

ثامناً: عبادة الاستعانة.

وقوله: «وَدَلِيلُ الاستِعَانَةِ» وهي: طلب العون. وهي من أجلّ العبادات، وهي تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، **قال شيخ الإسلام رحمه الله:** تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ^(١).

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نعبد أحداً سواك، ونستعين بك وحدك دون كل من سواك؛ لأن تقديم المعمول على العامل يفيد الحصر، فهذا النوع أجلّ أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وسر الخلق والكتب والشرائع والثواب والعقاب يرجع إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، **فالأول:** تبرؤ من الشرك، **والثاني:** تبرؤ من الحول والقوة، وهذا المعنى في غير آية من كتاب الله.

وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» ^(٢) في هذا الحديث حصر الاستعانة بالله وحده دون غيره من الخلق، فدلّ ذلك على أنها أجلّ العبادات، وعليها مدار الدين، فإذا استعان أحد بغير الله فهو مشرك شرك الأكبر.

(١) انظر: "المستدرک على مجموع الفتاوى" (١/١٧٥).

(٢) صحيح:

أخرجه أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وغيرهما من طرق عن الليث بن سعد، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن عبد الله بن عباس به. ورجاله كلهم ثقات إلا قيس بن الحجاج، فقد قال فيه أبو حاتم: إنه صالح، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق، وله طرق أخرى =

تاسعاً: عبادة الاستعاذة.

وقوله: «وَدَلِيلُ الاستِعاذَةِ» أي: طلب الإعاذة، وهي: الحماية من مكروه.

وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستعيذ بفالق الإصباح من شر جميع المخلوقات، وأن يستعيذ به من الوسواس الخناس، يعني: الشيطان الجاثم على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فالأمر بالاستعاذة به تعالى كثير في الكتاب والسنة، فدل على أن الاستعاذة بالله عبادة من أجل العبادات فصرفها لغير الله شرك أكبر.

عاشراً: عبادة الاستغاثة.

وقوله: «وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ» أي: طلب الغوث، وهو الإنقاذ من الشدة والهلاك.

وهي من أجل العبادات وأفضل أنواعها، وهي أخص أنواع الدعاء، فإذا صرفها أحد لغير الله كأن يستغيث بالأصنام أو بالأموات أو بالغائبين أو نحوهم فهو مشرك كافر.

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ أي: إذ تستجيرون ربكم وتطلبون منه الغوث فاستجاب لكم وأمدكم بنصره، فدلّت الآية على أن الاستغاثة عبادة فصرفها لغير الله شرك.

= عن ابن عباس كما قال الحافظ ابن رجب كما في "جامع العلوم والحكم" (١٩)، وهو في "الصحيح المسند" للعلامة الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ برقم (٦٨٥).

والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة تصح أن تطلب من المخلوق فيما يقدر عليه، بالأربعة الشروط السابقة وهي: أن يكون حيا، حاضرا، قادرا، مجرد سبب فقط.

الحادي عشر: عبادة الذبح.

وقوله: «ودليل الذبح» وهو: إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مخصوص. وهو عبادة من أفضل العبادات وأفضل القربات إلى الله تعالى، وهو ثلاثة أنواع:

(١) ذبح لله كالهدي والأضحية والصدقات.

(٢) ذبح لغير الله كالذبح للجن وأصحاب القبور، وهذا شرك أكبر.

(٣) ذبح مباح كالذبح للحم والتجارة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ جمع الله تعالى بين هاتين العبادتين (الصلاة والذبح) اللتين هما أفضل العبادات وأفضل القربات لله تعالى في هذه الآية، كما جمع بينهما في الآية الثانية، وهي قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] فدل ذلك على أن الذبح عبادة، وصرفه لغير الله شرك أكبر.

وقوله: «وَمِنَ السُّنَّةِ» أي: والدليل على أن الذبح عبادة من سنة رسول الله ﷺ التي أمرنا باتباعها قوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»^(١) فدل الحديث على

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن الذبح عبادة، لأن الله لعن من صرفه لغيره، والعبادة كلها مختصة بالله، فإذا صرفها أحد لغير الله بأن ذبح للأصنام أو للقبور المعبودة من دون الله التماساً لشفاعة أربابها أو للأولياء أو للجن أو لقدم سلطان أو نحو ذلك فهو مشرك كافر.

الثاني عشر: عبادة النذر.

وقوله: «وَدَلِيلُ النَّذْرِ» وهو: إلزام المكلف نفسه بشيء غير واجب عليه تعظيماً للمندور له، وهو عبادة يجب إخلاصها لله تعالى.

وقوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: يتعبدون لله بما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، فأثنى الله عليهم بالإيفاء به، وهو سبحانه لا يثني إلا على فاعل عبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر.

وذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه العبادات ليس على سبيل الحصر، وإنما مجرد مثال؛ لأن العبادات كثيرة جداً، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك.



الأصل الثاني

قال المصنف رحمه الله:

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، وكل مرتبة لها أركان.

فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام.

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده، (لا إله) نافية جميع ما يعبد من دون الله، (إلا الله) مثبتة العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه. وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى
وَزَجْرُ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
وَدَلِيلُ الْحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ
سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

الشرح:

لما فرغ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من الأصل الأول، شرع في ذكر الأصل الثاني من
أصول الدين، الذي لا ينبنى إلا عليها، وهو «مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ».

قوله: «وَهُوَ الاستسلام لله بالتوحيد» أي: الذل والخضوع لله بإفراده بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقوله: «والانقياد له بالطاعة» وهي فعل المأمور وترك المحذور، طاعة لله تعالى وابتغاء وجهه، ورغبة فيما عنده، وخوفاً من عقابه.

وقوله: «والبراءة من الشرك وأهله» أي: فلا بد أن يتبرأ من الشرك، ومن أهل الشرك في الاعتقاد والعمل والمسكن، بل يتبرأ من كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النسب إليهم، معادياً لهم أشد المعادة، غير متشبه بهم في قول أو فعل^(١).

وقوله: «وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان» وهذه هي مراتب الدين التي بعث بها النبي ﷺ، والمصنف رَحِمَهُ اللهُ ذكرها هنا مجملة، ثم فصلها وبيّن أدلتها.

(١) **تنبيه:** وقع في بعض نسخ الأصول الثلاثة ونحوها عبارة: [والخلوص من الشرك]، بدل قوله: [والبراءة من الشرك وأهله]، والمعتمد من كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ الذي في النسخ المعتمدة بهذه العبارة التي شرحناها، وهي: [والبراءة من الشرك وأهله]؛ لأن [الخلوص] من الشرك لا يكفي وحده، بل لابد معه من البراءة من أهله وتكفيرهم؛ كما قال تعالى عن إمام الحنفاء عليه السلام ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِ إِنَّا بِكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا كُبْرًا بَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤]، فتبرءوا من أهل الشرك قبل الشرك، ويدل لذلك قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ - فيما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ - **قال:** الرجز: الأصنام، وهجرها: تركها وأهلها والبراءة منها وأهلها. "التنبيهات المختصرة شرح الواجبات المحتمات" ص ٢١.

وقوله: «وكل مرتبة لها أركان» أي: وكل مرتبة من مراتب الدين الثلاثة لها أركان لا تقوم إلا عليها.

وقوله: «فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ» أي: لا يستقيم إلا بها، ولا يثبت بدونها، وما فقد منها زال الإسلام بفقده.

وقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيتِ الله الحرام» ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، كما جاء في الحديث الصحيح: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» الحديث^(١).

وقوله: «فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ» هذا شروع من المصنف رَحِمَهُ اللهُ في بيان أدلة أركان الإسلام الخمسة، والشهادة: خبر قاطع، وأطلق لفظ الشهادة على [شهادة أن لا إله إلا الله]، لأنها أعظم شهادة في الوجود على أعظم مشهود به، فلا ينصرف لفظ الشهادة عند الإطلاق إلا إليها.

وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: شهد الله أنه لا معبود بحق في الوجود إلا هو وحده،

(١) وكل خصلة من خصال الإيمان داخله في الإسلام، وكل خصلة من خصال الإسلام داخله في الإيمان، فما كان للأعمال الباطنة فوصف الإيمان أغلب من وصف الإسلام، وما كان من الأعمال الدينية الظاهرة كالشهادتين والصلاة وأنواع العبادات التي تظهر ويطلع عليها الناس، فوصف الإسلام عليها أغلب من وصف الإيمان، فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، كما أن دائرة الإيمان أوسع من دائرة الإحسان. "حاشية ابن القاسم" ص ٧٦.

فهو الإله الحق، ومن ادعت فيه الألوهية سوى الله فهو أبطل الباطل وأضل الضلال؛ لأن الله هو الإله الحق المستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه.

وقوله: «ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده» أي: ومعنى هذه الكلمة العظيمة شهادة أن لا إله إلا الله: (لا معبود) أي: لا مألوه (بحق إلا الله) وحده دون كل ما سواه، بل كل مألوه سوى الله عز وجل فإلهيته أبطل الباطل وأضل الضلال، فهذه الكلمة موضوعة لتوحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة، الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في تقريره وإيضاحه، وأما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون كأبي جهل وأضرابه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١] ولم ينازعوا فيه ولا امتنعوا من الإقرار به، بل احتج تعالى عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، فقال ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي: الشرك به في عبادته، فإنهم يعرفون معناها، وأنها دلت على إفراد الله بالعبادة، ولهذا أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، وقالوا: شتم آلهتنا، وقالوا: ﴿أَجْعَلِ لِلْأَلْهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] بل يريدون أن يجعلوا بينهم وبين الله وسائط وشركاء في العبادة، والمقصود: أنهم عرفوا أن مدلولها أن يكون المعبود هو الله وحده، وبهذا تعرف أن مدلول لا إله إلا الله مطابقة: هو إفراد الله بالعبادة.

وقوله: «(لا إله) نافيًا جميع ما يُعبد من دُونِ الله» الإله: هو المعبود المطاع، فالنفي في كلمة الإخلاص (لا إله) أي: لا مألوه يستحق أن يعبد إلا الله، فإذا

قلت: لا إله، كنت نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، وهي كثيرة جدا ولكنها عبت بالباطل، والإله المستحق للعبادة هو الله وحده، وآلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله إنما هي مجرد ظن منهم وإتباع لهواهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله: «(إِلَّا اللَّهُ) مُثَبَّتًا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ» أي: والإثبات في كلمة الإخلاص قولك: (إلا الله) هو المستثنى في هذه الكلمة العظيمة، ودلالة هذه الكلمة المتضمنة للنفي والإثبات على إثبات الإلهية لله وحده أعظم من دلالة قولنا: [الله إله]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] والقرآن كله يدل على إثبات العبادة لله وحده، ف (لا إله إلا الله) اشتملت على أمرين هما ركنها: النفي، والإثبات، ف (لا إله) نافيًا وجود معبود بحق سوى الله، و (إلا الله) مثبتًا العبادة لله وحده دون كل ما سواه، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض، فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات.

وقوله: «(لا شريك له في عبادته) كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ» يعني: فكما أنه المتفرد في ملكه فهو يدل على أنه يُفرد بالعبادة؛ فإن من أظلم الظلم أن يُجعل المخلوق الذي ليس شريكًا لله في الملك شريكًا لله في العبادة، ولهذا يحتاج على من

أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الإلهية، ولهذا قال: (كما أنه لا شريك له في ملكه).

وقوله: «وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوضِّحُهَا» أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله الذي بينها بياناً تاماً ذكره الله تعالى في القرآن، وبينها **مُبحاة وتعالى** في غير موضع من كتابه، ولم يوكل عباده في بيان معناها إلى أحد سواه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: وجعل كلمة التوحيد، وهي: (لا إله إلا الله) باقية في نسله وذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذريته، والكلمة هي: (لا إله إلا الله) بإجماع المفسرين، فعبر عن معنى (لا إله) بقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾. وعبر عن معنى (إلا الله) بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾.

فتبين أن معنى (لا إله إلا الله) هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله، ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار وهو لم يكفر بما عبد من دون الله، فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وقوله: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ والشاهد من الآية قوله: **﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾** ففيها معنى (لا إله إلا الله) وهو أنه لا معبود حق إلا الله وحده.

وقوله: «وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذه الآية تدل على أن حقه ﷺ مقدم على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيزه، وتوقيره.

وقوله: «وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ» أي: يجب طاعته ﷺ، ولهذا قرن **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** طاعة رسول الله ﷺ بطاعته في غير موضع من كتابه، فمن عصاه فقد عصى الله، ومن عصى الله فله نار جهنم.

وقوله: «وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ» أي: فهو الصادق المصدق ﷺ، وأمين الله على وحيه فكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف.

وقوله: «وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ» كما قال تعالى: **﴿وَمَا ءَانَتْكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾** [الحشر: ٧]، وقال النبي ﷺ: **«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»** ^(١).

وقوله: «وَأَن لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ» أي: لا بالأهواء والبدع، فإن الأصل في العبادات التشريع، وكل بدعة ضلالة.

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ هو مقتضى شهادة أن محمد رسول الله، وأما معناها فهو: أنه عبدٌ فلا يعبد ورسولٌ فلا يُكذَّب.

وقوله: «وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ» أي: ودليل الصلاة والزكاة، اللذان هما ركنان من أركان الدين الخمسة التي لا يستقيم إسلام عبد إلا بهما، وكذا في الآية تفسير التوحيد أيضًا، وهو الأساس الذي لا يستقيم إسلام عبد إلا به كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: وما أمر الذين كفروا إلا ليوحدوا الله ويفردوه بالعبادة، حنفاء مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا هو تفسير التوحيد

وقوله: «وَدَلِيلُ الصَّيَامِ» أي: وأنه أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يستقيم الإسلام إلا بها «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾» فأمر تعالى عباده المؤمنين من هذه الأمة بالصيام، لما فيه من زكاة النفوس وتطهيرها، وتنقيتها من الأخلاق الرذيلة، وقد فرض الصيام في السنة الثانية للهجرة.

وقوله: «وَدَلِيلُ الْحَجِّ» أي: وأنه أحد أركان الإسلام «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾».



المرتبة الثانية: الإيمان

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ الْإِيمَانُ: وَهُوَ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ. وأركانه ستة: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ السِّتَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية. ودليلُ القدرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

الشرح:

قدم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ المرتبة الأولى: وهي الإسلام، وثنى بمرتبة الإيمان؛ لأن أهله هم خواص أهل الإسلام^(١).

(١) فأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان، بخلاف العكس، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُومُنَا لَمْ نَكُنْ مَعَهُمْ وَلَا يَتَّبِعُنَا وَمَنْ يَتَّبِعُنَا يَنْصَرِفْ عَنْهُمْ فَلْيَعْلَمُوا بِحَقِّ طَرَفِهِمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فإن من حَكَمَتْ له النصوص أنه مؤمن فإنه مسلم على كل حال، فإن الإيمان وصف أعلى من وصف الإسلام؛ لأنه مشتق من الأمن فهو =

قوله: «الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ الْإِيمَانُ» وتعريفه هو: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^(١).

وقوله: «وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً» البضع: بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة، والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه، وشعبة من شعب الإيمان يدخل تحتها أفراد من الخصال، فهي من حيث هذا العدد يكون تحتها أفراد كثيرة.

وقوله: «فَاعْلَاهَا» أي: فأعلى شعب الإيمان «قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فهي كلمة الإخلاص، وكلمة الإسلام، وهي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وأساس الملة، ومفتاح الجنة «وَأَدْنَاهَا» أي: وأصغر شعب الإيمان «إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ» أي: إزالة الأذى عن الطريق، من شوك وحجر ونحو ذلك، مما يتأذى المار به «وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» أي: بعض منه، وإنما جعله بعضه؛ لأن المستحي

= من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه، ويكون خفية، والإسلام من الأمور المدركة المحسوسة في الظاهر، مشتق من التسليم أو المسالمة، فإذا أطلق الإيمان في النصوص دخل فيه الإسلام، وإذا أطلق الإسلام لم يدخل فيه الإيمان، ومن أثبت له الإيمان في النصوص، فإنه ثابت له الإسلام، والمسلم لابد أن يكون معه إيمان يصحح إسلامه، وإلا كان منافقاً، ولكن لا يستحق أن يمدح به ويشنى عليه، بل إيمانه ناقص. "حاشية ابن القاسم" ص ٩٩.

(١) فدخل فيه جميع المأمورات، سواء كان من الواجبات أو المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات، سواء كان ذلك المنهي ينافي أصول الدين بالكلية أو لا، فإن تعريفه المذكور يشمل ذلك، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرم من المحرمات إلا وهو من الإيمان. "حاشية ابن القاسم" ص ٩٩.

ينقطع بحيائه عن المعاصي، ولأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار وانتهاء، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان.

وقوله: «وأركانه ستة» أي: أصول الإيمان التي تركب منها، والتي يزول بزوالها ستة أركان، ويكون بزوال الواحد من تلك الستة كافرًا كفرًا يخرج من الملة.

وقوله: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ» وهذا أعظم أركان الإيمان، وهو أصل الأصول، وهو أن تؤمن بوجود الله تعالى، وتفرده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات.

وقوله: «وَمَلَائِكَتِهِ» أي: وأن تؤمن بجميع ملائكته، وأنهم عالم غيبي خلقهم الله من نور، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، ونؤمن بوجودهم، وبمن علمنا اسمه منهم كجبريل، ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً، ونؤمن بما علمنا من صفاتهم وأعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى، كتسبيحه، والتعبد له ليلاً ونهاراً بدون ملل ولا فتور.

وقوله: «وَكُتُبِهِ» المنزلة على الأنبياء من السماء، وأنها كلام الله حقيقة، وأنها منزلة غير مخلوقة، وأن الله أنزل مع كل رسول كتاباً، فنؤمن بها وبما أخبرنا الله من أسمائها وأخبارها وأحكامها إجمالاً وتفصيلاً، ونؤمن أن القرآن ناسخ لجميع ما قبله من الكتب وهي: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «وَرُسُلِهِ» أي: وكذا الإيمان بجميع رسله نؤمن بهم إجمالاً وتفصيلاً، فنؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة على التعين، وأعظم ذلك الإيمان بنبينا محمد ﷺ، ومن نؤمن بهم تفصيلاً أولوا العزم من الرسل وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بغيرهم ممن سمى الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في السنة المطهرة، ومن لم يسم في النصوص نؤمن بهم إجمالاً، والإيمان بهم فرض، وهو: التصديق بأنهم رسل الله إلى عباده، صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى.

وقوله: «وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أي: بما يكون بعد الموت في البرزخ، والحساب، والميزان، والجنة، والنار، والإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وأكبر ذلك وأعظمه الإيمان ببعث هذه الأجساد وإعادتها كما كانت أجساداً بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثواب على هذا الجسد والروح جميعاً، على ما فعلا من طاعة الله، أو يعاقبا على المعاصي التي صدرت منها جميعاً، فإن الطاعة والمعصية صدرت منها جميعاً، فلا بد أن يثاب على ما فعل، أو يعاقب على ما ترك فنؤمن أن الذي أوجد هذا الجسد وانفرد بخلقه يبعثه ويعيده كما كان.

وقوله: «وَبِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» أي: بما قدره الله، يعني: كتبه من خير وشر، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربعة أشياء:

- (١) الإيمان بأن الله تعالى علم في الأزل كل شيء جملةً وتفصيلاً.
- (٢) الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة.

(٣) الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن للعبد مشيئة ولكنها داخلية تحت مشيئة الله تعالى.

(٤) الإيمان بأن العبد مخلوق هو وأعماله، وكذلك سائر الكائنات. فلا يصير المرء مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وأن يعلم أنها أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ السُّتَةُ» أي: أنها أركان للإيمان، لا يستقيم إيمان العبد إلا بها جميعها، وأنه متى انتفى واحد منها لم يكن المرء مؤمناً **«قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾**.

وقوله: «ودليل القدر» وأنه ركن من أركان الإيمان لا يستقيم الإيمان إلا به **قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾** أي: ما خلقناه فبقدر الله وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الحديث: **«كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»**^(١).

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٥) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقوله: «حتى العجز» العجز هو عدم القدرة. وقوله: «الكيس» هو ضد العجز وهو النشاط والحظق بالأمر، ومعناه: أن العاجز قد قدر عجزه والكيس قد قدر كيسه. «شرح مسلم».

المرتبة الثالثة: الإحسان

قال المصنف رحمه الله:

المرتبة الثالثة: الإحسان ركن واحد: وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [٢١٧] الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال: «أن تشهد أن لا اله إلا الله. وأن محمدا ﷺ رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» قال: صدقت فعجبنا له

يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: أَخْبَرَنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: أَخْبَرَنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ».

الشرح:

قوله: «المرتبة الثالثة: الإحسان» وهو أعلى مراتب الدين ^(١) «ركن واحد»

أي: شيء واحد، ولم يذكر له أركاناً كما ذكر للإسلام والإيمان، ولكن له مرتبتان:

(١) الإحسان أخص من الإيمان والإسلام من جهة أصحابه، فكل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، وكلما أطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، كدوائر كل واحدة منها محيطة بالأخرى، ومعلوم أن من كان في دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام والإيمان، وإذا خرج عن الأولى فهو داخل في الثانية، وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثالثة وهي دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان -والعياذ بالله- فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من قال: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، فلا يلزم من دخوله في الإسلام أن يكون داخلاً في الإحسان والإيمان، وليس المراد أن من لم يكن في =

الأولى: عبادة المشاهدة: «وهو أن تعبد الله كأنك تراه» أي: عبادة حب ورغبة وشوق لما عند الله.

الثانية: عبادة المراقبة: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي: عبادة خوف ورهبة. فإن لم تعبد على استحضار الدرجة الأولى -درجة المشاهدة- فاعلم أنه يراك سميع عليم بصير، مطلع على جميع خفاياك. فهاتان درجتان إحداها أكمل من الأخرى.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: أن الله عز وجل مع عباده الذين اتقوا المنهيات، والذين هم محسنون في العمل يحفظهم ويكلؤهم ويؤيدهم، وهذه معية خاصة.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرْفَعُ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلَبُ فِي السَّجْدِ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: يراك في صلاتك في حال قيامك وركوعك

الإحسان والإيمان أن يكون كافرًا، بل يكون مسلمًا ومعه من الإيمان ما يصحح إسلامه، لكن لا يكون مؤمنًا بالإيمان الكامل الذي يستحق أن يثنى عليه به، فإنه لو كان مؤمنًا بالإيمان الكامل لمنعه من المعاصي والمحرمات، وقيل للنبي ﷺ: أعطيتهم وترك فلان وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم»، وقال: «لا يزني الزان حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن..» الحديث، وقال: «والله لا يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه». فالنصوص ما نفت عنهم الإسلام، بل أثبت لهم أحكام الإسلام من عصمة الدم وإذا ماتوا غسلوا وكفنوا وصلي عليهم، فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان، كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام فإن أهل الإحسانكملوا عبادة الله حتى وصلوا إلى حد المراقبة. "حاشية ابن القاسم" ص ١٠٨.

وسجودك وقعودك، وغيرها من الآيات الدالة على رؤية الله عَزَّوَجَلَّ وإطلاعه على أفعال خلقه.

وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: إلا ونحن عليكم شهودًا مشاهدون لكم راءون سامعون ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تأخذون في ذلك الشيء.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ» أي: والدليل على مراتب الدين الثلاث من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في ذلك «حَدِيثُ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ» وتعجب الصحابة من هذا الرجل حيث كان شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، والمسافر من شأنه أن لا يكون كذلك، ومع ذلك لا يرى عليه أثر السفر، ولم يعرفه الحاضرون «فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» وهذه الأركان الخمسة هي الإسلام، فدل على أن من أكمل الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلمًا حقًا وهذا هو دليل المرتبة الأولى، وفسره بأعمال الجوارح الظاهرة «قَالَ: صَدَقْتَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ» عجب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منه، فإن من شأن السائل أن يجهل ما يسأل عنه.

وقوله: «قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» وهذا دليل المرتبة الثانية، وفسره بالأعمال الباطنة، ودل الحديث على أن الإسلام والإيمان إذا اقترنا فيفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة.

وقوله: «قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وهو دليل المرتبة الثالثة، ففي هذا الحديث دليل هذه المراتب الثالث، وأن أركانها هي كما عدّها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: «قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا» أي: سيدتها، والمعنى: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها، وفسر بغير ذلك، وحاصله: الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير السافل عالياً.

وقوله: «وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ» أي: ومن أماراتها «أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ» جمع حاف، وهو الذي لا نعال عليه «الْعُرَاةَ» جمع عارٍ، وهو الذي لا ثياب عليه «الْعَالَةَ» جمع عائل وهو الفقير «رِعَاءَ الشَّاءِ» يعني الغنم «يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» والعرب كانوا قبل بعثة النبي ﷺ حفاة عراة، كما في هذا الحديث وكانوا في أشد حالة وأدناها، فمنَّ الله عليهم بالإسلام وقواهم حتى استنفقوا خزائن كسرى وقيصر، ثم وصلوا إلى أن وقعوا فيما أخبر به النبي ﷺ أنه من علامات قيام الساعة، والمراد:

أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفته، وفي الحديث: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١) لأنه يفسد نظام الدين والدنيا، وهذا كله من انقلاب الحقائق في آخر الزمان وانعكاس الأمور.

وقوله: «قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا» أي: زمانًا بعد انصرافه «فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ» وهو حديث جليل عظيم الشأن، يشتمل على بيان الدين كله، وهو أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، فإنه قد اشتمل على أصول الدين والعقائد بل انحصر في العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، وعقيدة أهل السنة والجماعة عليه، وشرفه وجلالته أمر مجمع عليه.



(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الأصل الثالث

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْأَصْلُ الثَّلَاثُ مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا رَسُولًا، نَبِيٌّ بِ (اقْرَأ) وَأُرْسِلَ بِ (المدثر).

وَبَلَدُهُ مَكَّةُ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ (٥)﴾ [المدثر: ١-٧]، وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عَظَّمَهُ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيُّ طَهَّرَ أَعْمَالَكَ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، الرُّجْزُ: الْأَصْنَامُ، وَهَجَرَهَا: تَرَكَهَا وَأَهْلَهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ.

الشرح:

قوله: «الأصل الثالث» أي: من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها وهو: «مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ» فمعرفة نبينا محمد ﷺ هي أحد الأصول الثلاثة، فكما أن الأصل الأول: وهو معرفة الله، وواجب معرفته، وكذلك الأصل الثاني: وهو معرفة دين الإسلام الذي خلقنا الله له وتعبدنا بالقيام به أصل عظيم وواجب معرفته، فكذلك هذا الأصل الثالث: وهو معرفة نبينا محمد ﷺ أصل عظيم يجب معرفته، فإنه ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، ولا وصول لنا ولا اطلاع لنا ولا طريق لنا ولا نعرف ما ينجينا من غضب الله وعقابه ويقربنا من رضى الله وثوابه إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ.

ومعرفته ﷺ تتضمن أموراً، ومنها:

- (١) معرفة اسمه ونسبه.
- (٢) معرفة عمره، وبقائه في الدنيا ووفاته.
- (٣) معرفة ما نبي به، وما أرسل به، وبلده ومهاجره.
- (٤) معرفة ما بعث به ﷺ، وهذا أعظمها.

أولاً: معرفة اسمه ونسبه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُوَ مُحَمَّدٌ» وهذا أشهر أسمائه، ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وكنيته: أبو القاسم **«ابنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»** واسمه: شيبه، ويقال له شيبه الحمد، لجوده، وجماع أمر قريش إليه **«ابنِ هَاشِمٍ»** واسمه: عمرو، وإنما سمي هاشمًا، لهشمه الشريد مع اللحم لقومه في سني المحل.

وقوله: «وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ» ولا خلاف بين العلماء أن هاشم ابنُ لعبد مناف، واسمه المغيرة بن قصي بن كلاب مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما فوقه فيه خلاف.

قوله: «وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ»^(١)، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وهذا نسبه ﷺ، وهو أشرف الأنساب كما قال النبي ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ**

(١) والمراد بالعرب هنا المستعربة؛ فإن العرب قسمان: عاربة ومستعربة؛ فالعاربة قحطان، والمستعربة عدنان، وهم أفضل من العرب العاربة؛ لأن منهم أفضل الخلق ﷺ، وهو القائل كما في حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» رواه مسلم، ولما سأل هرقل أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نسب النبي ﷺ؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: وهكذا الرسل تبعث في أنساب قومها؛ يعني: في أكرمها أحسابًا. متفق عليه "حاشية ابن القاسم" ص ١٢٧.

كِنَانَةً، وَاضْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ^(١)، فهو هاشمي قرشي عري.

ثانياً: معرفة عمره، وبقائه في الدنيا ووفاته.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا رَسُولًا» ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، عام الفيل، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر إلى المدينة، وفيه توفي ﷺ.

وتوفي أبوه وهو حمل، وكان عند جده، ثم عمه أبي طالب، وتزوج خديجة وله خمسة وعشرون سنة، ومنها أولاده إلا إبراهيم فمن سريره مارية القبطية، وشهد حلف المطيبين وبناء الكعبة، وكان يسمى: [الأمين] قبل مبعثه ﷺ.

ثالثاً: معرفة ما نبئ به، وما أرسل به، وبلده ومهاجره.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَبِيٌّ بِ (اقْرَأْ)» أي: أنزل عليه يوم الاثنين بلا خلاف، والمشهور أنه أنزل عليه في رمضان بغار حراء صدر سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١-٥] ورجع بها يرجف فؤاده، فقالت له خديجة رَحِمَ اللَّهُ عَنْهَا: والله لا

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع رَحِمَ اللَّهُ عَنْهُ.

يخزيك الله أبداً، وأخبرت بذلك ورقة ابن نوفل، فقال: هذا الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يعني: جبريل -.

وقوله: «وَأَرْسَلَ بَ (الْمَدَّثِرُ)» أي: بصدر سورة المدثر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١﴾ **قُرْآنُذَر ۝٢** وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالْجَنَازَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٧]، وذلك بعد فترة الوحي، ولما جاء الملك فخاف منه فقال: «دثروني» فأنزل الله هذه الآيات، ثم همي الوحي وتتابع، وكان ذلك أول ما أنزل عليه بعد فترة الوحي، وحينئذ شمر رسول الله ﷺ عن ساق العزم ودعا إلى الله.

وقوله: «وَبَلَدُهُ مَكَّةُ» أي: ولد ﷺ بها، ونشأ بها إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البادية، ثم رجع إليها في حضانة جده، ثم عمه، وأوحي إليه بها، وبقي بها ثلاث عشر سنة بعد أن أوحى إليه.

وقوله: «وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ» بعد أن هموا بقتله ﷺ، فتغيب في الغار، ثم سار هو وأبو بكر مهاجراً إلى المدينة، وذلك بعد أن بايعوه ﷺ على النصره والمؤازرة، وأرخت الأمة من مهاجره ﷺ.

رابعاً: معرفة ما بعث به؛ وهذا أعظمها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشَّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ» ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة مما يعرف به النبي ﷺ، وأعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به ﷺ، وأنه بعث بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، وقدم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا مدلول كلمة التوحيد (لا إله إلا

إلا الله)، ولأن الآية الآتية تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت العبادة والمنافي لها موجود وهو الشرك بالله لم تصح، ثم ثنى بالتوحيد، لأنه أوجب الواجبات، ولا يرفع عمل إلا به.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ﴾ ١ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۚ﴾ ٢ ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ ۚ﴾ ٣ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۚ﴾ ٤

هذه أول آية أرسل بها، وأول أمر طرق سمعه في حال إرساله ﷺ، وذلك أنه ﷺ لما رأى الملك الذي جاءه بحراء حين أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآيات رعب منه، فأتى إلى أهله فقال: «دثروني» فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾ أي: المتدثر بثيابه، المتعشي بها من الرعب الذي حصل من رؤية الملك عند نزول الوحي. ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي: قُمْ من دثارك فأنذرهم وحذرهم من عذاب ربك إن لم يؤمنوا، وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة.

وقوله: ﴿وَمَعْنَى﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشَّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ فإن الشرك أعظم ذنب عصي الله به، ولا يرفع معه عمل، والتوحيد أوجب الواجبات، وأول دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ فشمّر ﷺ عن ساق العزم وأنذر الناس، وعمّ وخصّ وأوذي على ذلك هو ومن اتبعه.

وقوله: «وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ عَظَمُهُ بِالتَّوْحِيدِ، وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ: أَيُّ طَهَّرَ أَعْمَالَكَ مِنَ الشَّرْكِ» فهو سبحانه الإله الحق لا ند له ولا مثل له، فلا شريك له في إلهيته ولا في ربوبيته، بل هو المستحق أن يعبد وحده لا يشرك معه أحد في عبادته، فإن الشرك

مع كونه أظلم الظلم فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أعظم ذنب عصي الله به^(١).

وقوله: «الرُّجُزَ: الْأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلُهَا وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا» أي:

فلا يتم توحيد العبد حتى يتبرأ من الكفر وأهل الكفر ويباعدهم وينابذهم.

وقوله: «أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ» أي: أخذ رسول الله

ﷺ في بيان التوحيد والدعوة إليه، وبيان الشرك والإنذار عنه، والتحذير منه عشر

سنين، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين، وقبل بقية الشرائع، وبهذا يتبين

لك حقيقة ما بعث به النبي ﷺ ودعت إليه الرسل كلهم هو إنذار عن الشرك،

والنهي عنه، والدعوة إلى التوحيد، وبيانه وتوضيحه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦] وخاتمهم محمد ﷺ، أول شيء دعاهم إليه أن قال: «قولوا: لا إله إلا

الله»، فقالوا ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فالنبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد، وذلك لأنه أساس الملة الذي تبنى

عليها، وبدونه لا يبنى شيء من الأعمال.

وقوله: «وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ» أي: أسري بجسده ﷺ وروحه

جميعاً من المسجد الحرام على البراق إلى البيت المقدس يقظة لا مناماً، كما أخبر الله

(١) ومن معاني الآية أيضاً: طهر نفسك مما يستقذر من الأقوال والأفعال.

عنه ثم صعد به جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى السماء على المعراج، وهو المصعد الذي تصعد فيه الملائكة، كلما مر بسماء تلقاه مقربوها حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى، فبلغ من الارتفاع والعلو إلى ما الله به عليهم، ودنا من الجبار **جَلَّ جَلَالُهُ**، وكلمة بلا واسطة، فأوحى إليه ما أوحى.

وقوله: «وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ» وكان أول فرضها خمسين صلاة، ولم يزل يتردد بين موسى وربه حتى وضعها إلى خمس، ثم قال تعالى: **«هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ»^(١)**، ثم هبط إلى البيت المقدس وهبط الأنبياء معه، وأمهم في بيت المقدس، ثم ركب البراق ورجع إلى مكة، وحدثهم عما رآه في مسيره **ﷺ**.

وقوله: «وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ» يعني: بعد أن عرج به وفرضت عليه قبل الهجرة، والإسراء قبل الهجرة بثلاث سنين.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٩) ومسلم برقم (١٦٣) عن أبي ذر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وجوب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

وبعدَها أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَالْهَجْرَةُ الْإِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، وَالْهَجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: سببُ نزولِ هذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا؛ ناداهم اللهُ باسمِ الإيمانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِثْلِ الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ،

وَالْحَجَّ، وَالْأَذَانَ، وَالْجِهَادَ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ.
وَتُوَفِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ.

الشرح:

قوله: «وبعدها أَمَرَ بالهجرة إلى المدينة» أي: وبعد ثلاث عشرة من مبعثه ﷺ أمر بمفارقة المشركين وأوطانهم بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى الله في غير بلادهم، فإن ذلك واجب وفرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يتم الفرض والواجب إلا مع مفارقة المشركين عن الأوطان، فإنه إذا كان في بلد لا يقدر على إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه.

وقوله: «وَالْهَجْرَةُ هِيَ: الْإِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، وَالْهَجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ» وهي ثابتة ومعلوم ثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع، ومتوعد من تركها، وفرضها الله على رسوله ﷺ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل فرض الصوم والحج.

وقوله: «وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ» أي: أن الهجرة مستمرة إلى يوم القيامة بإجماع العلماء، ولا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بالإقامة بين أظهر الكفار ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟! وهذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عاجزين عن الهجرة، لا نقدر عن الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) ﴿قَالُوا لَيْتَك عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا﴾ وهذا فيه أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب (١).

وقوله: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ أمر تعالى عباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين إلى أرضه الواسعة،

(١) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن للمسلم في الهجرة من بلد الكفر ثلاثة أحوال وهي:

الأولى: أن يكون قادرا على الهجرة من بلد الكفر، مع أنه لا يمكنه إظهار دينه بها، ولا أداء واجباته، فلهجرة واجبة.

الثانية: أن يكون قادرا على الهجرة، ولكنه يمكنه إظهار دينه، وأداء واجباته، فهي مستحبة؛ لتكثير المسلمين، ومعونتهم، وجهاد الكفار، والأمن من غدرهم، والراحة من رؤية المنكر بينهم.

الثالثة: أن يكون عاجزا عن الهجرة بعذر من أسْرٍ، أو مرض، أو غيره فتجوز له الإقامة، فإن حَمَلَ على نفسه، وتكَلَّفَ الخروج منها أُجِر. انظر: "فتح الباري" (٣٠٨١).

وأخبر أن الأرض غير ضيقة، بل واسعة تسع جميع الخلائق، فإذا كان الإنسان في أرض لم يتمكن من إظهار الدين فيها، فإن الله قد وسع له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وكذلك يجب على كل من كان ببلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكن تغييرها أن يهاجر منها.

وقوله: «قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ» هو أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، الملقب بـ [محيي السنة]، المتوفى سنة (٥١٦ هـ).

وقوله: «سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا؛ ناداهم الله باسم الإيمان» أي: أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاصٍ بتركها، فهو مؤمن ناقص الإيمان، عاصٍ من عصاة الموحدين المؤمنين.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ» أي: على وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام من سنة النبي ﷺ التي أمرنا باتباعها **«قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١)** أي: لا تنقطع الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام إلى يوم القيامة؛

(١) حسن لغيره:

أخرجه أحمد (١٦٩٠٦) وأبو داود (٢٤٧٩) والبيهقي (١٧٧٧٨) وغيرهم من طريق حريز بن عثمان، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي، عن أبي هند البجلي، عن معاوية به. وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة أبي هند البجلي، ولكن للحديث شواهد ذكرها العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الإرواء" برقم (١٢٠٨).

لأن التوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها، فدل الحديث على أن التوبة ما دامت مقبولة فالهجرة واجبة بحالها^(١).

وقوله: «فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ» أي: لما هاجر من مكة إلى المدينة واستقر بها وفشا التوحيد ودان به أولئك وأقاموا الصلاة، أمر ببقية شرائع الإسلام التي تعبد الله خلقه بها، إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة.

وقوله: «مِثْلَ الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالْأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ» أي: بقي نبينا ﷺ يدعو إلى التوحيد وشرائع الدين بعد هجرته إلى المدينة عشر سنين **«وَتُوَفِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ»** أي: موجود، وهو ما تضمنه الكتاب والسنة، مؤيد محفوظ إلى يوم القيامة، كاف لمن تمسك به.

وقوله: «وَهَذَا دِينُهُ» أي: الذي ترك أمته عليه، وتكفل الله بحفظه، فتوارثه أهل العلم والدين خلفاً عن سلف.

(١) وأما حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ» متفق عليه، فالمراد به: لا هجرة بعد فتح مكة منها إلى غيرها من البلدان؛ لأنها بعد فتحها صارت بلد إسلام، ولن تعود أبداً إلى الكفر، فلا تعارض بين هذا الحديث وبين حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، لأن ثبوت الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وبقائها معلوم بالنص والإجماع.

وقوله: «لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ» أي: خوفاً على أمته من الوقوع في المهالك، وقد بلغ الدين كله، وبينه جميعه، كما أمره الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ هُمْ»^(١).

وقوله: «وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ» فهو أصل كل خير وأعظمه، وأوجب الواجبات، ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

وقوله: «وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ» أي: من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وقوله: «وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ» فهو أصل كل شر وأعظمه، وكذا كل رسول يحذر أمته عن الشرك ويدعوهم إلى التوحيد.

وقوله: «وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ» أي: جميع ما يمنعه الله من الأقوال والأعمال ويبغضها حذر النبي ﷺ أمته منها.



(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٤٤).

بعثة النبي ﷺ ووفاته

قال المصنف رحمه الله:

بَعَثَهُ اللَّهُ فِي النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَكَمَّلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ ﴿ [الزمر: ٣٠ - ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿ [نوح: ١٧ - ١٨] وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَبِجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [التغابن: ٧].

الشرح:

قوله: «بَعَثَهُ اللَّهُ فِي النَّاسِ كَافَّةً» أي: بعث الله نبينا محمداً ﷺ إلى كافة الناس، عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدتهم، أحرهم وأسودهم، ولا نزاع في ذلك بين المسلمين.

وقوله: «وَأَفْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ» وهذا بإجماع المسلمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقرن طاعة الرسول ﷺ بطاعته في غير موضع من كتابه.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾» وهذا عموم ظاهر في بعثته ﷺ إلى الناس جميعاً، عربهم وعجمهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وهذا من شرفه ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، وأن طاعته فرض عليهم كلهم، وهو مقتضى رسالته ﷺ لا يمتري في ذلك إلا مكابر معاند.

وقوله: «وَكَمَّلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ» أي: لم يتوف النبي ﷺ حتى أكمل الله به الدين وبلغ البلاغ المبين، حتى قال: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»^(١).

(١) حسن:

أخرجه أحمد (١٧١٤٥) وأبو داود (٤٦٠٧) بإسناد حسن عن العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد حسنه العلامة الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيح المسند" برقم (٩٢١).

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾» هذه الآية لم تنزل إلا قبل وفاته ﷺ بثمانين يومًا، نزلت عليه وهو واقف بعرفة يخطب الناس في يوم الجمعة، وهذا أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل لها دينها، فلا يحتاجون إلى دين سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ، فمن ادعى أنه يحتاج إلى زيادة فقد كذب وافتري، ورد مدلول هذه الآية.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ

إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾» فأخبر سبحانه وتعالى أن نبينا محمدًا ﷺ سيموت وستفارق روحه جسده كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ومع كونه ﷺ قد انتهت حياته الدنيوية بموته، لكنه حي ﷺ في قبره حياة برزخية أعلى وأكمل من حياة الشهداء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وأما الحياة الجثمانية فلا ريب أنه مات ﷺ، وغسل وكفن وصلي عليه، ودفن في بيته ﷺ، ولم يقل إنه لم يميت إلا المبتدعة الخارجون عن منهج الكتاب والسنة كالصوفية وغيرهم، مخافة أن ينتقض عليهم أصلهم الباطل في توجيههم إليه، وسؤاله ما لا يقدر عليه، وإلا فموته ﷺ معلوم بالسمع والمشاهدة، مشهور يعلمه العام والخاص لا يمترى فيه إلا مكابر.

وقوله: «وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ» أراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ بيان وجوب الإيمان بالبعث والنشور من القبور؛ لأنه من جملة الإيمان باليوم الآخر، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث، بل الإيمان بالبعث هو معظم الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي كان ينكره أهل الجاهلية، أنكروا أن تعود هذه الأجساد كما كانت عظامها ولحمها وعصبها، وذلك من جهلهم بكمال علمه تعالى وقدرته على كل شيء، ولهذا يقرر تعالى بعث الأجساد وردها كما كانت في مواضع من كتابه بكمال علمه وقدرته.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وقوله تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا».

وقوله: «وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسِبُونَ» أي: على الأعمال حسننها وسيئها، والإيمان بالحساب والمجازاة على الأعمال من الإيمان باليوم الآخر أيضا.

وقوله: «وَمَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ» أي: دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة، يقرر فيها ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يجازي كل إنسان بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وقوله: «وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ» أي: لتكذبه الله ورسوله ﷺ وإجماع المسلمين «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيُبْعَثَنَّكُمْ ثُمَّ تُنْبِئُونَ بِمَا

عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣﴾ فالله تعالى كفرهم بإنكارهم للبعث في زعمهم أن لن يبعثوا، فدل على أن إنكار البعث كفر، بل هو من أعظم كفر أهل الجاهلية، وهذه الآية هي الآية الثالثة التي أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، والآية الأولى في يونس: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والآية الثانية في سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَ كُنُكُمْ﴾ [سبأ: ٣].



بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبيان دعوتهم

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
[النساء: ١٦٥]، وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ،
وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى
نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ
نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ،
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ
بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ
مَعْبُودٍ أَوْ مَتَّبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ، وَالطَّوَاعِثُ كَثِيرُونَ. وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ:
إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ،
وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَالدَّلِيلُ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ

بِالْطَّغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٥٦﴾، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.
وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

قوله: «وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ» أي: أرسل الله جميع رسله من أولهم وهو نوح عليه الصلاة والسلام إلى آخرهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، مبشرين من أجابهم إلى ما دعوا إليه برضوان الله وكرامته، ومنذرين ومخذرين من عصاهم غضب الله وسخطه وعقابه «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي: فلا يقولون يوم القيامة: [ما أرسلت إلينا رسولاً، ما أنزلت إلينا كتاباً]، فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأقيمت عليهم الحجة، وتبين الحق لهم، وانقطعت المعذرة، ولم يبق للناس على الله حجة.

وقوله: «وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عليه السلام» وكان بينه وبين آدم عشرة قرون كلهم على الإسلام، فلما حدث الشرك بسبب الغلو في الصالحين أرسله الله إليهم، وهو أول رسول إلى أهل الأرض بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

وقوله: «وَأَخْرَهُمْ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» أي: فلا نبى بعده صلى الله عليه وسلم؛ لأنه آخر الرسل إلى أهل الأرض بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، قال تعالى: ﴿مَا

كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴿٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «وإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، وأجمع المسلمون على ذلك.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوْلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾» أي: من بعد نوح تتابع الرسل، فهو أول رسول وأول نذير عن الشرك.

وقوله: «وكل أمة بعث الله إليهم رسولا من نوح إلى محمد» أي: فنوح أول رسول من بني آدم إلى أهل الأرض، وخاتمهم محمد ﷺ، وما من أمة من الأمم، ولا طائفة من الطوائف، إلا وقد بعث الله فيهم رسولا، إقامة منه تعالى للحجة على عباده، وإيضاحا للمحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥].

وقوله: «يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ» أي: يدعوهم إلى هذا الذي بعثت به الرسل، ودعوتهم كلهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، فزبدة جميع ما أرسلت به الرسل هو التوحيد، ولأجله خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: ولقد أرسلنا في كل طائفة وقرنٍ وجيلٍ من الناس رسولا ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اتركوا وفارقوا عبادة ما سواه، وهذه الآية هي معنى: لا إله إلا الله، فإنها

تضمنت ركنيها وهما: النفي والإثبات، فالإثبات ﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، والنفي ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وهذه طريقة القرآن يقرن النفي بالإثبات، فينفي ما سوى الله، ويثبت عبادة الله وحده، والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات.

وقوله: «وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله» ولأجل ذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، بل الدين أمران: كفر بالطاغوت، وإيمان بالله، ومن كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وقوله: «قال ابن القيم رحمه الله» هو الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، المعروف بابن القيم الجوزية، صاحب التصانيف المقبولة، المتوفى سنة (٧٥١هـ).

وقوله: «معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده» أي: كل شيء يتعدى به العبد حده، أي: قدره الذي ينبغي له في الشرع يصير به طاغوتاً، سواء تعدى حده «من معبود» مع الله بأي نوعه من أنواع العبادة «أو متبوع» في معاصي الله «أو مطاع» من دون الله في التحليل والتحريم، فهو طاغوت، ثم قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإذا تأملت طواغيت العالم فإنها لا تخرج عن هذه الثلاثة^(١).

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/٥٠).

وقوله: «وَالطَّوَاعِيتُ كَثِيرُونَ» أي: إذا عرفت ما حده الإمام ابن القيم **رَحِمَهُ اللَّهُ**

بتحقيق، تبين أن الطواغيت كثيرة جدا من بني آدم بلا حصر، وذلك أن كل من تجاوز حده في الشرع صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتًا.

وقوله: «وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ» أي: أكبر الطواغيت بالاستقراء والتأمل خمسة

وهم:

(١) **«إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ»** وهو رأسهم الأكبر؛ لأنه معبود ومتبوع ومطاع كما قال

تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

(٢) **«وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ»** أي: بتلك العبادة الصادرة من العابد، بأي نوع من

أنواعها، فهو طاغوت من رؤساء الطواغيت وكبرائهم.

(٣) **«وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ»** أي: ممن يقر الغلو كفرعون ومشايخ

الضلال من الرافضة والصوفية الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد واتخاذهم أربابًا والإشراك بهم مما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم، وحكي عن بعضهم أنه قال: من كان له حاجة فليأتني إلى قبري وليستغث بي.

(٤) **«وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ»** أي: كالمنجمين والرمالين والسحرة

ونحوهم، فهؤلاء طواغيت كفار؛ لأنهم مكذبون بالقرآن كقوله تعالى: ﴿عَلِمُ

الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝﴾ [آل مِائِنِ أَرْتَضَى مِنْ رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا] [الجن: ٢٦-٢٧] وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا

هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ
الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

٥) «وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» أي: كمن يحكم بقوانين الجاهلية، والقوانين
الدولية المخالفة لشرع الله، بل جميع من حكم بغير ما أنزل الله، سواء كان
بالقوانين، أو بشيء مخرع وهو ليس من الشرع، أو بالجور في الحكم فهو طاغوت
من أكبر الطواغيت.

والحكم بغير ما أنزل الله له حالتان:

الحال الأولى: يكون كفرا مخرجا من الملة في صور منها:

- ١) إذا استحل الحكم بغير ما أنزل الله.
 - ٢) إذا اعتقد أن حكم غير ما أنزل الله أحسن من حكم الله وأفضل.
 - ٣) إذا اعتقد أن حكم غير الله مساو لحكم الله.
 - ٤) إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله لا يصلح في هذا الزمان الحاضر.
- والدليل قول الله تعالى: ﴿إِنْ أُلْحِكُمْ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وقال
تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [النين: ٨] فمن ادعى أن حكم غير الله مثل حكم
الله أو أحسن، أو شيئا مما تقدم، فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

الحال الثانية: يكون كفرا غير مخرج من الملة (كفر أصغر):

إذا لم يعتقد شيئاً مما سبق، بل يعتقد أنه يجب عليه الحكم بما أنزل الله، ولكنه عدل عن ذلك عصياناً (أي: أنه معترف بأنه يستحق العقوبة)، إما لهوى في نفسه، أو طمعا في مال أو رشوة، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، فهو تارك لكمال التوحيد الواجب -الذي يآثم تاركه-، وهو تحت المشيئة.

والدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: هو كفر دون كفر ^(١).

وقوله: «وَالدَّلِيلُ» أي: والدليل على كفر هذه الطواغيت الخمسة **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾** أي: تمسك بالتوحيد وهو العروة الوثقى، أي: القوية التي **﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾** أي: لا تنفك ولا تنفصم **«وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»** فمن تمسك بالتوحيد، وصل الجنة بكل حال، فإن معنى (لا إله إلا الله): كفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما تقدم.

وقوله: «وَفِي الْحَدِيثِ ^(٢): رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ» أي: رأس الدين الذي جاء به النبي ﷺ هو الإسلام، فمن انتسب إلى ما جاء به النبي ﷺ وادعى أنه من أمة

(١) صحيح:

أخرجه ابن جرير في تفسيره عند الآية وغيره من طرق معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هي به كفر، وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله. وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات.

(٢) حسن لغيره:

الإجابة، وقد فقد منه رأس الأمر وحقيقته -وهو: الإسلام- فليس من أمة الإجابة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: كل اسم علق بأسماء الدين من إسلام أو إيمان أو غيرهما إنما يثبت لمن اتصف بتلك الصفة الموجبة لذلك. اهـ^(١)

فمن ادعى أنه متبع لرسول الله ﷺ وهو يدعو مع الله غيره، كأن يسأله قضاء الحاجات وتفريج الكربات ويزعم أن ذلك قربة إلى الله، وأنه مما يحبه النبي ﷺ، فهو كاذب في دعواه الاتباع لرسول الله ﷺ، ولا ريب أنه هو المضاد المعاند المعادي للنبي ﷺ المنتقص المستهزئ بدين النبي ﷺ، وخالف ما جاء به الرسول ﷺ، ومرق من الإسلام، حيث جعل الشرك توحيدا، وزعم أن هذا مما أمر به، فعمل الشرع والدين جميعا.

وقوله: «وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ» هذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنها من الدين بهذا المكان العظيم، وهو أن مكانها من الدين مكان العمود من الفسطاط^(٢)، فكما أن عمود الفسطاط إذا سقطت سقط الفسطاط، فكذلك إذا فقدت الصلاة سقط

= أخرجه أحمد (٢٢٠١٦) والترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وغيرهم من طريق معمر، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل به. وهذا إسناد منقطع، فأبو وائل شقيق بن سلمة لم يسمع من معاذ، ولكن للحديث شواهد أخرى يحسن بها. انظر: "جامع العلوم والحكم" (٢٩).

(١) انظر: "مجموع الفتاوى" (٢٢٧/٣٥).

(٢) وهي الخيمة الكبيرة.

دين تاركها، ولم يبق له دين؛ لأن مجرد ترك الصلاة كفر مخرج من الملة، فمن جحد وجوبها فقد كفر بالإجماع، وإن فعلها، كما أن جحد شيء مجمع عليه عند الأئمة كفر، وإن تركها تكاسلا فهو كافر على الصحيح.

وقوله: «وَذَرُوهُ سَنَامِهِ» أي: أعلاه وأرفعه **«الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»** وهذا يفيد أن الجهاد هو أعلى وأرفع خصال الدين؛ وذلك لأن فيه بذل المهج التي ليس شيء أنفوس منها، ولا يعادها شيء البتة، فيبذل مهجته، ويبذل ماله لظهور الدين وتأييده، وجهاد الكفار والمنافقين، فبذلك استحق أن يكون من الدين بهذا المكان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] وغير ذلك من الآيات والأحاديث المستفيضة في فضل الجهاد والحث عليه، وهو ركن من أركان الدين.

وقوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ» ختم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة برّد العلم إلى الله الذي أحاط بكل شيء علما، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً.



شرح القواعد الأربع

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي

رحمه الله

شرحه

أبو عبد الله طارق بن يوسف بن عباس الوليدي



التعريف بالقواعد الأربع

القاعدة هي أساس الشيء الذي يتفرع عنه مسائل وفروع كثيرة، وقد تضمنت هذه الرسالة على مقدمة في بيان التوحيد وأهميته، وأربع قواعد عظيمة وهي:

القاعدة الأولى: في بيان توحيد الربوبية.

القاعدة الثانية: في بيان توحيد الألوهية.

القاعدة الثالثة: في بيان معنى الشرك.

القاعدة الرابعة: النتيجة المستفادة من القواعد السابقة.

وقد أثنى العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ على هذه القواعد ثناء عظيماً مما يدل على أهميتها، حتى قال العلامة عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه القواعد التي وضعها شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، أحق بهذا الاسم من غيرها، لما ينبني عليها من أصول الدين؛ فإن معرفة توحيد الربوبية، من توحيد الإلهية، لا يسع أحداً جهله.

فمن أنكر هذه القواعد التي وضعها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه، فقد كفر بما تضمنته من أدلة أصول الدين، التي تضمنتها آيات القرآن المحكمات وصحيح الأحاديث؛ وذلك هو الدين القيم، كما قال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ۚ

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ
وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]. وقال تعالى:
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ
دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وبهذا البيان، يعلم المنصف أنه لا ينكر تلك القواعد إلا من أقعده جهله،
وعميت بصيرته، وضل فهمه، وتغيرت فطرته، وضاع عقله؛ نعوذ بالله من
الخذلان، ونسأله معرفة الحق وقبوله، ومحبة والعمل به والثبات عليه،
والاستقامة في الدنيا والآخرة؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو
حسبنا ونعم الوكيل. اهـ^(١)



(١) انظر: "الدرر السنية" (١١/٣٦٦-٣٦٨).



عنوان السعادة

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا
ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

الشرح:

ابتدأ المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد البسملة بالدعاء لطالب العلم، وهذا يدل على
حرصه وحبه لطلبة العلم، وسؤال الله لهم بأن ينالهم كل خير، مع ما فيه من
الشفقة والرحمة لهم، وقد دعا لطلاب العلم بثلاث دعوات وهي:

(١) قوله: «أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ» أي: أن يكون الله تعالى مُجِبًّا ونصيرا وظهيرا ومعينا لك في الدنيا
والآخرة، وأولياء الله هم: الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى كما قال تعالى: ﴿أَلَّا
يَكُنْ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

٢) قوله: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ» أي: يجعلك كثير النفع للآخرين، فالبركة هي النماء والزيادة وثبوت الخير الإلهي في الشيء. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] ^(١).

٣) قوله: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ» لأن النعم تقابل بالحمد والشكر باللسان والقلب والجوارح **«وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ»** لأن البلايا والمصائب الواجب فيها الصبر، وهو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب ونحوهما **«وَإِذَا أذْنَبَ اسْتَغْفَرَ»** لأن الذنب والسيئة الواجب فيها التوبة والاستغفار، وهو طلب ستر الذنب والتجاوز عنه **«فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثُ عُنوانُ السَّعَادَةِ»** قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: ولا ينفك عبد عن هذه الأمور الثلاثة أبداً -يعني: النعمة، والبركة، والذنب-، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث. اهـ ^(٢)

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ: أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

(٢) انظر: "الوابل الصيب" ص ٥.

أهمية التوحيد وبيان معناه

قال المصنف رحمه الله:

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَّارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

الشرح:

قوله: «اعْلَمْ» فعل أمر من: العلم. والعلم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

وقوله: «أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ» هذا دعاء للمُتَعَلِّم بأن يَهْدِيَهُ اللهُ إلى طاعته سبحانه ويوفقه لسلوك سبيلها. والرشد هو: الاستقامة على طريق الحق، وهو ضد الغي. و(الطاعة) هي: موافقة أمر الشرع بفعل المأمور وترك المحذور. وفي دعاء المصنف **رَحِمَهُ اللهُ** للمُتَعَلِّم دلالة على شَفَقَتِهِ عليه، ونُصْحِهِ له، وهو أدب رفيع في التعليم أكثر المصنف **رَحِمَهُ اللهُ** منه في كتبه ورسائله، وهذا من حسن عنايته ونصحه للأمة.

وقوله: «أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ» الحنيفية مُشْتَقَّةٌ من: الحَنَف، وهو في اللغة بمعنى: الميل، والحنيف: هو المائل. و(الحنيفية) يُقصد بها: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، وهي الملة المائلة عن الشرك، المبنية على الإخلاص لله **عَزَّوَجَلَّ**.

و(الملة) هي: الدِّين، وهي اسم لكل ما شرعه الله تعالى لعباده على ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: «أَنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ» (العِبَادَةُ) في اللغة: الدُّلُّ والخُضُوعُ. وهي بمفهومها العام: التذلل لله بحبة وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه.

وقوله: «مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» الإخلاص هو: تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك. والدين هو كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة.

وقوله: «وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ما أوجد الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الثقلين إلا لحكمة عظيمة، وهذه الحكمة العظيمة هي عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

وقوله: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ» أي: توحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة، فالذي يشرك بالله **عَزَّوَجَلَّ** لا يكون عابداً لله، ولا يسمى محققاً للعبودية، وإنما يحقق العبد العبودية لله إذا أخلص العمل لله **عَزَّوَجَلَّ**، فمهما كان الإنسان عابداً لله بجميع أنواع العبادات، ولكنه يصرف بعض العبادات لغير الله كالأولياء والصالحين أو للأضرحة والقبور، فهو مشرك بالله تعالى، فصدور العبادة من غير توحيد لا يسمى عبادة، وإذا صدرت ممن أشرك فيها مع الله غيره فهي بمنزلة الجسد الذي لا روح فيه، وإذا عبد الله تارة، وأشرك معه تارة، فليس بعابد لله على الحقيقة، كما سمي الله المشركين مشركين وهم يعبدون الله ويخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يهربون ويفزعون ويلجئون إليه تعالى وحده، ويعرفون أن تلك الآلهة ليست شيئاً في الحقيقة، وأنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك

كله سباهم الله مشركين، بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية في غير موضع من كتابه.

ثم مثل المصنف رَحِمَهُ اللهُ لذلك بقوله: «كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَّارَةِ» أي: أن الشرك ينقض التوحيد كما ينقض الحدث الطهارة، وكما يبطل الأكل الصلاة، فالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو ناقض من نواقض التوحيد، ومبطل من مبطلات الإسلام، فلا يسمى المشرك موحدًا، ولا يسمى المشرك أيضًا مسلمًا.

وقوله: «فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ» وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه، وهو كون الشرك يبطل الإسلام وينقض التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والمراد بالشرك الذي يحبط العمل بالكلية هو الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر فإنه يفسد العمل الذي قارنه فقط.

وقوله: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ» أي: بأن قصد بتلك العبادة غير وجه الله من ولي أو نبي أو غيرهما «أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ» لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] «عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ» أي: معرفة التوحيد، الذي تصح به العبادات، فإن كثيرًا ممن ينتسب إلى الإسلام يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهو يظن أنه مسلم ويظن أنه عابد لله عَزَّوَجَلَّ وهو خارجٌ من دائرة الإسلام، بل قد يقوم الليل ويصوم النهار ويتصدق بالأموال

الكثيرة، وهو يوم القيامة خالد مخلد في نار جهنم؛ لأنه يصرف بعض العبادات لغير الله كالذبح والنذر والدعاء، ويقع في الشرك الأكبر.

وقوله: «لَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ» شبه المصنف **رَحِمَهُ اللَّهُ** الشرك كأنه مصيدة من وقع فيه هلك، كالتائر إذا وقع في الشبكة، ثم بين ما هي الشبكة فقال: **«وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ»** وهذا فيه فائدة وثمرة من ثمار دراسة التوحيد وهي: الحرص على التخلص من الشرك؛ لأنه إذا وقع فيه قد لا يستطيع التخلص منه، وانظر كيف شبه الشرك بالشبكة، وهذا تمثيل بديع للشرك، فإن الإنسان إذا تساهل في يسير الشرك أو شك أن يقع في عظيمه، ولذلك قال رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: **«إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»** قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: **«الرِّيَاءُ»**^(١).

وقوله: «الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: فهذا يدل على

(١) صحيح لغيره:

أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) من طريق عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن محمود بن لبيد **رَحِمَهُ اللَّهُ** به. وفيه: انقطاع فعمر لم يسمع من أحد من الصحابة، فلم يسمعه من محمود بن لبيد، وبينهما: عاصم بن عمر بن قتادة الضفري وهو ثقة، كما عند البيهقي في "الشعب" (٦٤١٢) والبخاري في "شرح السنة" (٤١٣٥)، فالحديث حسن لأجل عمرو بن أبي عمرو فهو حسن الحديث وبقيته رجاله ثقات.

وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري **رَحِمَهُ اللَّهُ**، وفي إسناده ضعف، فالحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده، وهو في "الصحيح" للعلامة الألباني **رَحِمَهُ اللَّهُ** برقم (٩٥١).

خطورته، وأن الله تعالى لا يغفر لمن أشرك به الشرك الأكبر ومات على ذلك، بل هو مخلد في النار أبدا كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله: «وَذَلِكَ» أي: يحصل التخلص من شبكة الشرك «بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ» أي: أنها مأخوذة من كتاب الله تعالى، وأجمع عليها العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ.





القاعدة الأولى: في بيان توحيد الربوبية

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

القاعدة الأولى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

الشرح:

قوله: «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» أي: كفار قريش، وكذلك من سواهم «مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ» أي: مقرون بتوحيد الربوبية، بل كل المشركين الذين بعث الله إليهم الرسل كانوا مقرين بأن الله هو خالقهم ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] وأنه الرزاق الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ
 فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [يونس: ٣١] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مِنْ بِيَدِهِ
 مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ
 لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] وهذا فرعون مع غلوه في كفره ودعواه
 أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ
 يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] يقول الله في حقه
 قائلًا عن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: أن فرعون -
 عليه لعنة الله - مع كفره كان يعلم أن الله تعالى ربه وهو رب السماوات والأرض،
 بل حتى إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ
 يَبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] وهذا يدل على اعترافه بالربوبية^(١).

(١) قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالالوهية ضرورة، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه. "أضواء البيان" (٢١/٣).

وقوله: «وَأَنَّ ذَلِكَ» أي: الإقرار بتوحيد الربوبية «لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ»

ولم يصيروا بهذا مسلمين ولم يكونوا بهذا موحدين، بل قاتلهم الرسول ﷺ واستباح دمائهم وأموالهم؛ لأنهم أشركوا بالله في صرف العبادة لغير الله، واتخذوا مع الله آلهة أخرى يخافونهم ويعبدونهم ويستنصرون بهم ويستغيثون بهم، وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفي العبد في حصول الإسلام إقراره بتوحيد الربوبية، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية.

فإن قيل: فلماذا كانوا يعبدون الأصنام والأوثان والصالحين وغيرهم مع أنهم

يقرون بأن الله هو الخالق المالك المدبر؟

فالجواب: أن المشركين لم يعبدوا الأصنام والأوثان، ولم يتخذوا المسيح وأمه، ولم يتخذوا الملائكة شركاء لله تعالى، لأجل أنهم يشاركون الله في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم؛ بل إنما اتخذوهم لأنهم وسائط يقربونهم إلى الله زلفى كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] ولأجل أن يشفعوا لهم أيضا عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] (١).

(١) انظر: "تطهير الاعتقاد" ص ٤٧-٥٠.

فتبيّن هذه القاعدة أنّ من أقرّ بتوحيد الربوبية ولكنه صرف بعض العبادات
لغير الله لا ينفعه إقراره هذا بأن الله هو الخالق الرازق، بل هو مشرك بالله
كمشركي قريش الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستحلّ دماءهم وأموالهم.



القاعدة الثانية: في بيان توحيد الألوهية

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

القاعدةُ الثانية: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].
وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثَبَّتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطَلَّبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثَبَّتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطَلَّبُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرح:

قوله: «**أَنَّهُمْ يَقُولُونَ**» أي: المشركون «**مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ**» أي: ما دعونا الأصنام والأوثان والأولياء والصالحين وعبدناهم من دون الله «**إِلَّا لِيَطْلُبَ الْقُرْبَةَ**» وهي المنزلة والمكانة عند الله «**وَالشَّفَاعَةَ**» وهي: الوساطة، أي: أن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للأصنام والأوثان والأولياء والصالحين بقولهم: نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون ومملوكون، ولكن حيث إن لهم عند الله جاها عظيما ومقامات عالية، ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ دليل هذه المقالة للمشركين فقال: «**فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾**» أي: ما عبدناهم وتوجهنا إليهم ليكشفوا الضر، ويحييوا دعاء المضطر، ويجلبوا الرزق، ويدبروا الأمر، فإن ذلك لله وحده، وإنما فعلنا ذلك «**﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**» أي: قربي، ولترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئا.

وقوله: «**وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾**» أي: هؤلاء يشفعون لنا عند الله، كما يتقرب الناس إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين، ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم، وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله -

العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد وتخضع له المخلوقات بأسرها - بالملوك
 الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم.
 فأبطل الله هذا الزعم وبين أن الشفاعة كلها له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ
 الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه،
 ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيدَه وإخلاص العمل له،
 قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ
 لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تُنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ
 وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وقوله: «وَالشَّفَاعَةُ» وهي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، مأخوذة
 من الشفع وهو الزوج، ضد الوتر، وذلك أن الطالب وتر، فإذا كان معه آخر صار
 شفعًا.

وقوله: «شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةُ مَنْفِيَّةٌ» وهي التي نفاها القرآن، وهي ما كان فيها
 شرك. **«وَشَفَاعَةُ مُثَبَّتَةٌ»** وهي التي أثبتها القرآن، وهي ما ليس فيها شرك.

وقوله: «فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ» وهي التي يعتقدها
 المشركون، فعندهم أن الشفاعة عند الله كالشفاعة عند المخلوق، يعتقدون أن
 الأولياء والملائكة يشفعون عند الله كما يشفع وزير الملك عند الملك، والصدّيق

عند صديقه، وقد نفى الله هذه الشفاعة، فالشفاعة التي يظن المشركون أنها تكون بغير إذن الله لا وجود لها يوم القيامة.

وقوله: «فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ» كالمغفرة ودخول الجنة وحصول الرزق والعافية ونحو ذلك، وأما الشفاعة من الحي الحاضر القادر بطلب الدعاء منه، فهذه جائزة، فقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم، في مطالب الدنيا والآخرة، كأن يستسقي لهم، وأن يدعو لهم بالجنة، ولما ذكر النبي ﷺ أن سبعين ألفاً من أمته يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب قال عكاشة بن محصن: أدعو الله أن يجعلني منهم، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»^(١)، والمسلم إذا دعا لأخيه المسلم وسأل الله له صلاح دينه ودنياه فهو شافع له.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ» أي: على الشفاعة المنفية التي نفاها القرآن «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾»^(٢) فبين الله تعالى أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٣]، **قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ** - في هذه الآية -: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها،

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥) ومسلم برقم (٢٢٠).

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

١- إما **مالك** لما يريد عابده منه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٢- فإن لم يكن مالكا كان **شريكا** للمالك ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾.

٣- فإن لم يكن شريكا له كان **مُعِينًا له وظهيرا** ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾.

٤- فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان **شفيعا** عنده ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

فنفي الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً، متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفي الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نورا وبرهاناً وتجريداً للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها^(١).

وقوله: «وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطَلَّبُ مِنَ اللَّهِ» لأنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هو الذي يملكها دون ما سواه، وهذه الشفاعة تكون للرسول ﷺ، والأنبياء، والملائكة، والمؤمنين يوم القيامة.

(١) انظر: "مدارج السالكين" (١/ ٣٥١).

ثم بيّن المصنف **رَحِمَهُ اللَّهُ** الحكمة من الشفاعة مع أنه سبحانه قادر على أن يغفر لعباده بلا شفاعة، فقال: **«وَالشَّافِعُ مُكْرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ»** أي: أن الله تعالى يُكرم الشافع بالشفاعة فيمن أذن له أن يشفع فيه، فهذا هو حقيقة أمر الشفاعة، لا كما يظنه المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء، فيدخله الجنة، وينجيه من النار، ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم.

وقوله: «وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ» وهذا ضابط الشفاعة المثبتة: وهي ما اجتمع فيها ثلاثة شروط:

الأول: إذن الله بالشفاعة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فمن شفع بغير إذن الله؛ فإنه لا تنفعه الشفاعة، ولا تعتبر شفاعة شرعية.

الثاني: رضى الله عن الشافع. ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ [النجم: ٢٦] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضَى لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

الثالث: رضى الله عن المشفوع له، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] أي: لمن رضىه الله **عَزَّ وَجَلَّ**.

وقوله: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه، فأنكر عليهم، وبيّن عظيم

ملكوته وكبريائه، وأن أحدا لا يتمكن أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له، وأن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] فيبين تعالى أنها لا تقع إلا بشرطين: (١): إذن الرب للشافع أن يشفع، (٢): ورضاه عن المأذون فيه، وهو سبحانه لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه، ولقيه العبد به مخلصا غير مشرك. فتبين بهذه القاعدة أن من دعا الأولياء والصالحين وغيرهم بحجة أنهم يشفعون له عند الله لقربهم من الله وعظيم منزلتهم عنده سبحانه فهو مشرك بالله تعالى كمشركي قريش لا فرق بينهم وبينه.





القاعدة الثالثة: في بيان معنى الشرك

قال المصنف رحمه الله:

القاعدة الثالثة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أَنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَفِرْقُوا بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وَدَّلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَدَّلِيلُ الْمَلَائِكَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وَدَّلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا مَمْلَكُوتَ كُشَفَ الصُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وَدَلِيلُ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

وَحَدِيثُ أَبِي وَقَدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُثَيْنَ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ.. الْحَدِيثُ.

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه القاعدة ردًا على مشركي زماننا الذين يقولون: هناك فرق بين من يدعو الأصنام والأوثان والأحجار كما هو حال كفار قريش، فهذا هو الشرك، وبين من يدعو ويستغيث بالأولياء والصالحين فإن هذا ليس من الشرك، فحصروا الشرك بالله في عبادة الأشجار والأحجار، فرد عليهم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ عَلَى أَنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ» أي: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعثه الله لدعوة الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وجد أناسًا أشتاتًا في عباداتهم وشركهم، كل له معبود، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢] «مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ

يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَفَرِّقْ بَيْنَهُمْ» أي: كفرهم الرسول ﷺ كلهم، وقاتلهم كلهم، ولم يفرّق بين من كان يعبد الأولياء والصالحين، ولا بين من كان يعبد الأشجار والأحجار، بل سوى بينهم؛ لأن العلة واحدة وهي صرف العبادة لغير الله، والمؤدّي واحد وهو الشرك في عبادة الله، فكل من عبّد مع الله غيره فهو مشرك كافر؛ فإن العبادة حقّ لله لا يجوز صرفها لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ» أي: والدليل على كفرهم جميعاً، ووجوب قتالهم كلهم بدون تفريق بين من عبد ولياً أو ملكاً، وبين من عبد حجراً أو كوكباً **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** أي: حتى لا يكون شرك، فأمر الله بقتال الكفار كلّهم دون تفريق بينهم.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الآيات التي تدل على حصول الشرك من المشركين بهذه الأشياء، فقال: **«وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ»** أي: والدليل على أن بعض الناس عبّد الشمس والقمر **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** فنهى الله تعالى عن السجود للشمس والقمر وأمر بالسجود لله الذي خلقهن، فهو تعالى المستحق أن يعبد، لأنه خالقهما، ودلّ هذا على أنّ منهم من كان يعبد الشمس والقمر.

وقوله: «وَدَلِيلُ الْمَلَائِكَةِ» أي: والدليل على أن بعض الناس عبد الملائكة **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** فهذا دليل على أن من المشركين من كان يعبد الملائكة، ومنهم من كان يعبد الأنبياء، فنهاهم الله تعالى عن ذلك كله.

وقوله: «وَدَلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ» أي: والدليل على أن من الناس من عبد بعض الأنبياء **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** فهذه الآية فيها دلالة على الشرك بعبادة الأنبياء، فعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبي وقد عبد من دون الله، وفيها دلالة - أيضا - على وجود الشرك بعبادة الصالحين؛ فإن أمه من الصالحات وقد عبدت من دون الله.

وقوله: «وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ» أي: والدليل على أن من الناس من يعبد الصالحين **«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾** أي: فهؤلاء المعبودون المدعوون من دون الله أناس صالحين يدعون ربهم ويبتغون إليه الوسيلة، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، فكيف تعبدونهم من دون الله؟!، ففيه دليل على الشرك بعبادة الصالحين.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيان سبب نزولها "كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ" رواه البخاري ^(١).

وقوله: «وَدَلِيلُ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ» أي: والدليل على أن من الناس من عبد الشجر والحجر «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ﴾  وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ» قوله: «اللَّتَّ» هي صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف، كان عندها رجل يَلْتُ السَّوِيقِ ^(٢) للحاج، فمات فعكفوا على قبره، فعظمت الصخرة وعبدت تبعاً لصاحب القبر.

وقوله: «وَالْعُزَّىٰ» هي: شجرة سمر عليها بناء وأستار، بنخلة الشامية المسماة بـ [المضيق] بين مكة والطائف، وهذا دليل الشرك بعبادة الأشجار.

وقوله: «وَمَنْوَةَ» وهي: صنم بالمشلل عند قُديد بين مكة والمدينة، وهذا دليل الشرك بعبادة الأحجار.

وقوله: «وَحَدِيثُ أَبِي وَقْدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» أي: والدليل من السنة على عبادة الأشجار «حَدِيثُ أَبِي وَقْدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا» أي: يلبثون ويقيمون عندها ويعظمونها، وإنما عكفوا عندها لما كانوا يأملونه فيها من البركة،

(١) برقم (٤٧١٤).

(٢) اللَّتَّ: هو الخلط والفت. والسويق: هو طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير المَحْمَصِ يخلط بتمر أو سمن ونحوه. سمي بذلك لانسياقه في الحلق، والجمع: أسوقة. "المعجم الوسيط".

كما يعكف عباد القبور اليوم عندها ويجاورون بها، وتدفع الصدقات والنذور لتلك القبور.

وقوله: «وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ» أي: يعلقونها عليها لتناهم بركتها، زعموا أنها تجعل السيف أمضى وأقوى وأشد، فعبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الثلاثة: [العكوف] و[التعظيم] و[التبرك]، عُبدت الأوثان من دون الله.

وقوله: «يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أُنُوطٍ» سميت بذلك لكثرة ما يناط ويعلق بها من السلاح «فَمَرَرْنَا بِسُدْرَةِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أُنُوطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أُنُوطٍ» سألوه أن يجعل لهم شجرة مثلها يتبركون بها، ويعلقون عليها أسلحتهم، ويعكفون عندها، ظناً منهم أن هذا أمر محبوب عند الله، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السَّنَنُ، قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ﴾^(١) فشبّه ﷺ مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان فالمعنى واحد، [فتغيير

(١) صحيح:

أخرجه الترمذي (٢١٨٠) وكذلك أحمد (٢١٨٩٧) والنسائي في "الكبرى" (١١١٢١) وغيرهم من طريق الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي سنان عن أبي واقد الليثي به. وسنان بن أبي سنان روى عنه جمع، ووثقه ابن حبان والعجلي وابن خلفون وابن حجر والذهبي، وأخرج له الشيخان في المتابعات، وهو من طبقة التابعين، فالحديث صحيح، وقد صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح وضعيف سنن الترمذي" (٢١٨٠).

الاسم لا يغير الحقيقة] فدل على أن التبرك بالأشجار والأحجار شرك أكبر، لتسويته ﷺ بين مقالتههم ومقالة بني إسرائيل. فعلم بهذه القاعدة أنه لا فرق بين من عبد الأولياء والصالحين وتبرك بهم وبأضرحتهم، وبين من عبد الأحجار والأشجار، خلافا لما يزعمه عباد القبور والأضرحة من الفرق بينهما، تبريرا لشركهم وكفرهم، فكلهم قد صرف العبادة لغير الله، ووقع في الشرك الأكبر.





القاعدة الرابعة: في بيان النتيجة المستفادة من القواعد السابقة

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

القاعدة الرابعة: أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًَا مِنَ الْأَوَّلِينَ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ، وَمُشْرِكُوا زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

[العنكبوت: ٦٥].

الشرح:

هذه القاعدة ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ كالنتيجة لما سبق، فإذا علمت أن كفار قريش كانوا يقرون بتوحيد الربوبية^(١)، وهم إنما عبدوا الأصنام والأوثان لكي تقربهم إلى الله زلفى، وليشفعوا لهم عند الله^(٢)، وأن منهم من كان يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم من كان يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين^(٣)، فهذا هو عين حال مشركي زماننا، فلا تتردد في الحكم على من عبد الأولياء والصالحين،

(١) كما في القاعدة الأولى.

(٢) كما في القاعدة الثانية.

(٣) كما في القاعدة الثالثة.

واستغاث بأصحاب القبور وذبح لهم الذبائح، ونحر لهم النحائر، بل «مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ» أي: أعظم وأشد «شُرْكَاءَ مِنَ الْأَوَّلِينَ» أي: من مشركي أهل الجاهلية، ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الدليل على ذلك فقال: «لَأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ» أي: في حال السعة والطمأنينة والعافية يدعون مع الله إلهًا آخر، ويعبدون غيره «وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ» أي: في حال الضيق والكربات والأمراض والشدائد، يخلصون لله دعائهم واستغاثتهم، فلا يدعون غيره «وَمُشْرِكُوا زَمَانِنَا شُرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ» أي: مشركوا زماننا لا يتركون عبادة الأولياء والصالحين في أيِّ حال من الأحوال، لا في رخاء ولا شدة، بل حالهم أشد وأخبث؛ لأنهم يخلصون الدعاء والاستغاثة بأوليائهم إذا دهمتهم الشدائد ونزلت بهم الكربات، خلافا للمشركين الأولين، وقلَّ من يستغيث بالله منهم في تلك الحال.

وقوله: «وَالدَّلِيلُ» أي: على أن المشركين الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون الدعاء لله والعبادة لله في الشدة «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾» فالمشركون الأولون عند حصول الشدائد يعلمون أنه لا ينجيهم إلا الله فيخلصون له الدعاء والاستغاثة، وأما مشركوا زماننا فهم إذا نزلت بهم الشدائد يخلصون دعائهم واستغاثتهم بالأولياء والصالحين، فهم أشد شركا من المشركين الأولين. ومن الأدلة أيضا على أن مشركي زماننا أغلظ شركا من الأولين:

(١) أن أغلب أهل الجاهلية كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، وكان شركهم في الألوهية حيث صرفوا العبادة لغير الله، وأما المعتقدين في الأموات في زماننا فهم جمعوا بين شركهم في الألوهية وصرف العبادة لغير الله، وبين شركهم في الربوبية ودعواهم أن أولياءهم يخلقون ويرزقون، وينفعون ويضرون بل ويحيون الموتى، كما هو الحاصل من غلاة الصوفية اليوم.

(٢) أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أشجاراً وأحجاراً (وهي مطيعة لله ليست عاصية)، وأما مشركوا زماننا فإنهم يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس وأفجرهم، ممن يعلمون عنهم الفجور من الزنا والسرقه وترك الصلاة وغير ذلك، ومن المعلوم عند كل أحد أن الذي يعبد الصالح والذي لا يعصي كالخشب والحجر أهون شركاً ممن يعبد من يشاهد فسقه وفساده.

(٣) أن أهل الجاهلية علموا ما يلزم من شهادة التوحيد وهو أفراد الله بالعبادة، ولذلك امتنعوا من النطق بها وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وأما مشركوا زماننا فقد جهلوا معناها وما يلزم منها فلذلك هم ينطقون بها مع وقوعهم فيما يناقضها.

(٤) أن مشركي الجاهلية كان أحدهم إذا اجتهد في القسم، أقسم بالله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى عنهم في غير ما آية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وجهد الأيمان هي: أشدها، أي: أقسموا بالله أشد أيمانهم التي بلغت قدرتهم، وكانوا يعتقدون أن الله

هو الإله الأعظم، فلهذا أقسموا به، وأما المعتقدون في الأموات في زماننا فإنه إذا اجتهد أحدهم في القسم أقسم بوليّه ومعبوده من دون الله.

فإن قيل: كيف تفضلون مشركي قريش على مشركي زماننا، والمشركون الأولون كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد، ولم ينطقوا بها، وهؤلاء المعتقدون في الأموات يقرون بها ويتلفظون بها؟

فالجواب: أن هؤلاء وإن قالوها بألسنتهم، فإنهم خالفوها بأفعالهم واعتقاداتهم، فإن من استغاث بالأموات، أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، أو عظمهم، أو نذر لهم بجزء من ماله، أو نحر لهم فقد نزلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال، فهو يقول معنى (لا إله إلا الله)، ولا عمل بها، بل خالفها اعتقاداً وعملاً، فهو في قوله: (لا إله إلا الله) كاذب على نفسه، فإنه قد جعل لها إلهاً غير الله يعتقد أنه يضر وينفع، وعبدته بدعائه عند الشدائد، والاستغاثة به عند الحاجة، وبخضوعه له وتعظيمه إياه، ونحر له النحائر، وقرب إليه نفائس الأموال. وليس مجرد قول (لا إله إلا الله) من دون عمل بمعناها مثبتاً للإسلام، فإنه لو قالها أحد من أهل الجاهلية، وعكف على صنمه يعبدته لم يكن ذلك إسلاماً^(١).

قال الإمام النجدي رَحِمَهُ اللهُ: والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله تعالى

(١) انظر: "الدر النضيد" ص ١٣٢.

بالتعلق و الكفر بما يعبد من دونه والبراءة منه، فإنه لما قال ﷺ: قولوا (لا إله إلا الله) قالوا ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني. والحاذق منهم يظن أن معناه لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله) (١).



(١) انظر: "كشف الشبهات" ص ٩.

المحتويات

٦	مقدمة
٨	نبذة مختصرة عن الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي
١١	شرح الأصول الثلاثة وأدلتها
١٣	التعريف بثلاثة الأصول
١٤	المسائل الأربع
٢٢	المسائل الثلاث
٣١	الحنيفية ملة إبراهيم
٣٥	الأصول الثلاثة
٤٣	أنواع العبادة
٥٨	الأصل الثاني
٦٧	المرتبة الثانية: الإيمان
٧٢	المرتبة الثالثة: الإحسان
٧٨	الأصل الثالث
٨٦	وجوب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام
٩٢	بعثة النبي ﷺ ووفاته
٩٧	بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبيان دعوتهم

١٠٧	شرح القواعد الأربع
١٠٩	التعريف بالقواعد الأربع
١١١	عنوان السعادة
١١٣	أهمية التوحيد وبيان معناه
١١٩	القاعدة الأولى: في بيان توحيد الربوبية
١٢٣	القاعدة الثانية: في بيان توحيد الألوهية
١٣٠	القاعدة الثالثة: في بيان معنى الشرك
١٣٧	القاعدة الرابعة: في بيان النتيجة المستفادة من القواعد السابقة
١٤٣	المحتويات



التنسيق والإخراج

Q4.Prn

Quickly For Print

كيوفور

للطباعة والنشر

q4.prn@hotmail.com

+٩٦٧ ٧٧٧ ٠٢٠ ٠٤٥

+٩٦٧ ٧٧٤ ٦٦٩ ٤٩٧



شرح تاليف الأصول والادلتها
والقواعد الأربع

للإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

شرحه
أبو عبد الله طارق بن يوسف بن عباس الوليدي

